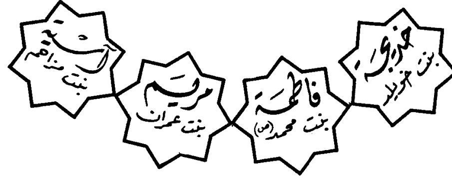
سيدات نساء أهل الجنة



تأليف
د. موسى الخطيب
أستاذ مدرس بجامعة الأزهر





سيدات
نساء أهل الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

قال رسول اللّه ﷺ: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت مُحمد وآسية امرأة فرعون» رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه. وفي رواية أخرى «خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ». (أخرجه ابن حيان عن أنس رضي الله عنه).

الحمد لله الذي اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين فكان منهم للناس الأسوة الحسنة في النبيِّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وصلى الله على سيِّدنا محمّد خاتم النبيِّين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبعد فهذا الكتاب نقدِّم فيه لقرّائنا الأعزّاء لمحات طيِّبات عن سيِّدات نساء أهل الجنّة: السيّدة مريم العذراء، التي شرّفها الله تعالى وخصّها بتكريم خالص في مواضع شتّى من الكتاب العزيز، وهو يذكر اسم العذراء دائماً «مريم» حتى بلغ ذلك أربعاً وثلاثين مرّة فهي الصدّيقة البتول الطاهرة التي تربَّت في حجر الفضيلة وأثنى عليها الله تعالى في كتابه العزيز «ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين» (التحريم: ١٢).

وكانت مريم ترعى وليدها عيسى عليه السلام فكانت تكتم أمره من الناس لا يطلع عليه أحد، ولا تأمن عليه ولا على معيشته أحد، وكانت تلتقط السنبل في الحصاد حيثما سمعت بموعده، والمهد في منكبها، والوعاء الذي تحمل فيه السنبل في منكبها الآخر، وقد لاقت في سبيل رعايته وكفالته أهوالاً شتى منذ ولادته، وعندما

تآمر عليه هيرودوت ليقتله فرت به إلى مصر، وعاشا في سلام بين أهـل مصر، إلى أن حان موعد رسالته عليه السلام فعادا معاً هو وأمه إلى الشام.

وكانت مريم عليها السلام آية في اصطفائها، آيـة في مولـدها للمسيـح عليهما السلام، آية في طهارتها وبتوليتها، وآية في شخصيتها كقـول القرآن: «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين» (الانبياء: ٩١).

وبهـذه الفضائـل كلها استحقت مـريم عليها السـلام أن تكون كـما أرادهـا الله سيدة نساء العالمين في الجنّة. قال تعالى: «وإذ قـالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين»(آل‌عمران: ٤٢).

وأما ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة فحديث رواه الحاكم في المستـدرك عن أبي سعيد قولهﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة إلا ما كان من مريم بنت عمران».

فـذلك هـو تكريم الإسـلام والمسلمين لـمريم يـطهـرونها ويعلون من قـدرهـا، ويرفعون ذكرها، ويضربونها مثلاً نبيلاً لشرف الدنيا والآخرة.

والسيدة المؤمنة آسية بنت مزاحم امـرأة فرعـون وهي رعت سيدنـا موسى عليـه السلام في حال صباه وربته واتخذته ابناً وحفظته من كيد فرعون ثم آمنت به وصدقت بـرسالتـه، ولاقت في سبيل إيمـانها ما لاقتـه من العـذاب عـلى يـد فـرعـون وزبـانيتـه فـاحتملت صابـرة حتى استشهـدت في سبيـل الله وهي الصِـدِّيقـة التي شرّف الله بهـا مصر.

فـاستحقت أن تكون مثـلاً للمؤمنين، ومنّ الله عليهـا بالـرضـوان وأنعم عليهـا بقصر في أعلى غرف الجنان قال تعالى: «وضرب الله مثلاً للذين آمنـوا امرأت فـرعون إذ قـالت رب ابن لي عندك بيتـاً في الجنّة ونجني من فـرعـون وعمله ونجني من القـوم الظالمين» (التحريم: ١١).

وقـوله ﷺ: «سيـدات نساء أهـل الجنّة: خـديجة بنت خـويلد، وفـاطمـة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وكانت أم المؤمنين السيدة خديجة عظيمـة حقاً حـين أعانت زوجهـا، ﷺ، على عبادته في خلوته، الليالي ذوات العدد في غار حـراء بعيداً عن المجتمـع الفاسـد الذي سفهت نفـوس أهله فنحتوا الأصنـام وعبدوهـا من دون الله وهي أحجـار لا تضر ولا تنفع.

وكانت أم المؤمنين خديجة عظيمة حقاً في ثباتها وتثبيتها حين جاء زوجها ﷺ، مرعوب الفؤاد وقال لها زمّليني - زمّليني، وقصّ عليها ما رأى وما سمع عند نزول الوحي أول مرة ببشائر القرآن الكريم «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم»(العلق: ١ - ٥).

فقالت رضي الله عنها: «الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. والله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة».

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً حين كانت أول من استجاب للإيمان في هذه الأمة فصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين.

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً حين وقفت إلى جوار زوجها ﷺ في شِعب أبي طالب، فصبرت على الحصار الجائر الذي فرضته قريش - وهي ظالمة - على صاحب الرسالة العظمى، وبهذا الصبر الجميل تحملت أم المؤمنين ما استوعره المترفون، وأنست بما استوحش منه الغافلون.

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً حين قالت: «الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام» وذلك حين جاء جبريل فيما رواه البخاري بسنده، قال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فقال ﷺ: «يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك».

فأجابت رضي الله عنها بما تقدم.

قالوا: وإنما بشرها ببيت من قصب لأنها حازت قصب السبق في الإيمان، لا صخب فيه ولا نصب، لأنها لم ترفع صوتها على رسول الله ﷺ، ولم تتعبه يوماً من الدهر، فلم تصخب عليه يوماً ولا آذته رضي الله عنها وبهذا استحقت أن تأخذ مكانها بين سيدات أهل الجنّة فهي أم المؤمنين وأكمل النساء، وسيدة نساء العالمين وأفضل نساء الجنّة رضي الله عنها وأرضاها.

أما السيدة فاطمة الزهراء فهي البضعة المحمدية التي كرّمها الله وزوجها فجعل منها ذرية نبيّه ﷺ:

«فهي أصل قوي من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالاً طوالاً، ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا، وفيما يلي من العصور.

وفي كل دين توجد صورة للأنوثة الكاملة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى.

فإذا تقدست في المسيحية مريم العذراء، ففي الإسلام لا جرم أن تتقدس صورة فاطمة البتول.

فهي الطاهرة والبتول، زهرة المصطفى، خير نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنّة، وأفضل نساء العالمين زوج الإمام علي، وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، رضوان الله عليهم أجمعين».

قال تعالى: «إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الأحزاب: ٣٣).

وروى الحاكم عن حذيفة قال، قال رسول الله ﷺ: «نزل ملك فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة».

وروى الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء أهل الجنّة بعد مريم، فاطمة، وخديجة، وامرأة فرعون».

وإذ نقدِّم للقرَّاء هذا الكتاب فإننا نأمل أن ينفع الله به من يطلع عليه، وأن يعتز كل مسلم ومسلمة بدينه ويُرضي ربه فيه، «ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسُلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تُخْلِف الميعاد» (آل عمران: ١٩٣).

المؤلف
أ.د. موسى الخطيب

الفصل الأول

وصف الجنّة وأهلها وفضلها

«إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنّات الفردوس نُزُلاً. خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا». (قرآن كريم: الكهف: ١٠٧-١٠٨).

وصف الجنّة وأهلها وفضلها

لا خلاف بين العلماء أنها في السماء لقوله تعالى: «عند سدرة المنتهى عندها جنّة المأوى (النجم: ١٥).

ولإنها دار نعيم، فتكون في جهة العلوّ، بخلاف النار فإنها سجن، والسجن يكون في السفل.

ورد في وصفها، (وما لله سبحانه على عباده في خلقها من المنّة والفضل) ووصف أهلها (نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها) نقول وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة وسنكتفي بقدر يسير منها، يبين من ورائه القصد والله المستعان، فهي دار النعيم ودار البقاء ودار الخلود.

قال تعالى: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علّواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين (القصص: ٨٣).

وقوله تعالى: «أُعدَّت للمتقين» (آل عمران: ١٣٣). وقوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا. خالدين فيها لا يبغون عنها (الكهف: ١٠٨).

وقوله تعالى: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنّة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنّة حيث نشاء فنعم أجر العاملين» (الزمر: ٧٤).

وقد جاءت في فضائل الجنّة ووصفها أخبار وأثار منها: قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: جنات الفردوس أربع اثنتان من ذهب، حليتها وآنيتها وما فيها، واثنتان من فضة حليتها وآنيتها وما فيها، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن، أخرجاه في الصحيحين. وروى البخاري من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ قال: إن في الجنّة خيمة من درَّة مجوفة عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن.

وروى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: أُدخلت الجنّة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وأترابها المسك والجنابذ أي القباب.

وفي الصحيحين[1] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنّة يتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدّري العائد «الغارب» في الأُفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم، وفي رواية الكوكب الدّري، فأما العائد فهو السهم الذي لا يدرى من رمى به.

وتمام الحديث، قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم فقال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين.

وفيهما من حديث سهل بن سعد وأبي سعيد وأنس كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: إن في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

وأخرج أحمد في المسند عن عتبة بن عبد السلمي: أنها تشبه شجرة الجوز بالشام، قال: تنبت على ساق واحد ويتفرش أعلاها. وقال مسلم بإسناده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن في الجنّة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب فيها رياح الشمال، فتحثوا في وجوههم وثيابهم فيزدادوا حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهاليهم وذويهم فيقولون لهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالا».

وروى أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: إن في الجنّة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وإنّ جنّة الفردوس أوسطها وأعلاها سماء، وعليها يوضع العرش يوم القيامة، ومنها تتفجر أنهار الجنّة، فقال له رجل: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، هل فيها خيل؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده، إنّ فيهاالخيلاً من ياقوتة حمراء، ترف بهم بين خلال ورق الجنّة يتزاورون عليها، فقال له رجل: فهل فيها من إبل؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده، إنّ فيها لإبلاً من ياقوتة حمراء رحالها الذهب والفضة، عليها نمارق الديباج، ترف بهم خلال ورق الجنّة يتزاورون عليها. فقال له رجل: هل فيها صوت؟ قال: نعم، إنّ الله ليوحي إلى شجرة في الجنّة أن أسمعي عبادي هؤلاء الذين شغلهم ذكري في الدنيا عن عزف المزاهر والمزامير بالتسبيح والتقديس.

(١) الصحيحين: البخاري ومسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أنهار الجنّة تتفجّر من حبل مِسك، وفي رواية، وتجري في عين أُخدود.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خمر الجنّة أشد بياضاً من اللبن. وعن ابن عباس أنه قال: الجنات سبع: دار الجلال، ودار السّلام، وجنّة عدن، وهي قصبة الجنّة وهي مُشرفة على الجنان، وجنّة المأوى، وجنّة الخُلْد، وجنّة الفردوس، وجنّة النعيم. قال: ونخل الجنّة جذوعها زمرد أخضر وكربها ذهب أحمر، وسعفها كسوة أهل الجنّة.

وروى البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل في مسنده عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: إنَّ في الجنّة ثمانية أبواب فيها باب يُسمّى الريّان لا يدخله إلا الصائمون.

وحدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: يدخل أهل الجنّة الجنّة على طول آدم ستين ذراعاً، وعلى حسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاثاً وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد ﷺ.

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن عن أنس، قال، قال النبي ﷺ: إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا،وسرير هذا إلى سرير هذا، حتى يجتمعا، فيتكىء هذا ويتكىء هذا، فيقول هذا لصاحبه: تعلم متى غُفر لنا؟ فيقول صاحبه: نعم يوم كذا وكذا في موضع كذا وكذا.

ويُحدثنا القرآن عن حال السُعداء المؤمنين حين يُساقون على النجائب وفداً إلى الجنّة (زُمراً) أي جماعة بعد جماعة: المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء والصدّيقون مع الصدِّيقين، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضاً (حتى إذا جاءوها) أي وصلوا إلى أبواب الجنّة بعد مُجاوزة الصرَاط حُبسوا على قنطرة بين الجنّة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنّة. وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنّة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد ﷺ وعليهم أجمعين كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها .وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنّة» وفي لفظ لمسلم: «أنا أول من يقرع باب الجنّة» وروى

الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنّة يوم القيامة استفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: مُحمد - قال - فيقول بك أمُرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

ثم تفتح أبواب الجنّة فيدخلها السُعداء من المؤمنين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا».

وجاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنّة الثمانية يدخل من أيها شاء».

وقال معاذ رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنّة لا إله إلا الله».

وفي الحديث الشريف الذي رواه أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «الجنّة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس».

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عليّ رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا صلّى العبد فلم يسأل الله الجنّة، قالت الجنّة: يا ويح هذا أما كان ينبغي له أن يسأل الله الجنّة؟ وإذا لم يتعوّذ من النار، قالت النار: يا ويح هذا، أما كان ينبغي له أن يتعوّذ من النار.

اللهم إنا نعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من غضب الجبّار، ونسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأن تجعل خير أيامنا خواتيمها، وحُسن لقائك، يا ذا الجلال والإكرام ويا ذا الطول والإنعام إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني

سيـــدة نســاء أهــل الجنَّـة، أكمل النساء، وخيرُ نساء العالمين

السيدة مريم العذراء

عليها السلام

«وإذ قالت الملائكة يا مَريم إنَّ الله اصطفـاكِ وطهَّرك واصـطفاكِ عـلى نساء العـالمين» (قـرآن كـريم، سـورة آل عمران: الآية: ٤٢).

ومَرْيَم ابنت عمْرانَ التي أحصنت فرْجها فنفخنـا فيه مِن روحنــا وصـدَّقَتْ بكلمات ربّهــا وكُتُبِــهِ وكــانت من القانتين» (قرآن كريم، سورة التحريم: الآية ١٢).

تقديم

لقد اختار الله ـ جلّ سناؤه ـ مريم منذ أول الخليقة. فاصطفى آباءها وأجدادها من آدم إلى عمران على العالمين. قال تعالى: «إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» (آل عمران: ٣٣).

جاء في تفسير ابن كثير: أن الله تعالى اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام،خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنّة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، واصطفى نوحاً عليه السلام وجعله أول رسول بعث به إلى أهل الأرض لمّا عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام.

قال محمد بن إسحاق، هو عمران بن ياشم بن آمون من ذرية نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، المتصل النسب بسيدنا إبراهيم عليه السلام، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم، روى ابن أبي حاتم أن الحجّاج أرسل إلى يحي بن يعمر الفقيه فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟

قال: أليس تقرأ سورة الأنعام «ومن ذريته داود وسليمان» حتى بلغ «ويحيى وعيسى» قال: بلى.

قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟

قال: صدقت.

ونعود من حيث بدأنا إلى السيدة العذراء، مريم بنت عمران، الصدِّيقة

البتول، الطاهرة، التي تربَّت في حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطُهر والنزاهة، والتي أثنى الله تعالى عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة قال تعـالى: «ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا. وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكـانت من القانتين» (التحريم: ١٢).

كان والدها (عمران) رجلاً عظيماً، وعالمـاً جليلاً من علماء بني إسرائيـل، وكان أهلها - كما جاء في الأثر - هم ملوك بني إسرائيـل وأحبارهم، وأن الله تعـالى اختارهم واصطفاهم على الإنس والجن والملائكة «على العالمين».

وقد ذكر الله عمران في ثمانية مواضـع في القرآن الكريم.

مولد السيدة العذراء

كانت مريم العذراء آية للعالمين في ميلادها. فقد حملت بها أمها حنَّة بنت فاقود بمعجزة إذ كانت عجوزاً عاقراً لا تلد. وكانت الزوجة الصالحة للحبر الجليل عمـران، وكان رجلاً صالحاً تقياً حكيماً.

وقـد نقل إلينـا البيضاوي في تفسـيره: فبينما هي في ظـل شجرة إذ رأت طـائراً يُطعم فرخه فحنَّت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إنَّ لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكـون من خدمـه. فقال لهـا زوجها: مـا تصنعين إن كان الحمل أنثى؟ ومات عمران وهي حامل بمريم.

قالوا: وكانوا يتمنون الولد لما يكـون عليه من القـوة والجَلَد على العبـادة والصبر والاحتمال على الخدمة في المسجد الأقصى.

ففي تلك الصلاة القصيرة الخـاشعة. وفي تلك المفـاجأة الكـريمة الصـادقة التي فاض فيها قلبها بالرجاء ولهج لسانها بالدعاء حملت حنَّة بنت فـاقود بمـريم... كقولـه تعالى: «إذ قالت امرأت عمران رب إني نـذرت لك مـا في بطني مُحـرراً فتقبّل مني إنـك أنت السميع العليم» (آل عمران: ٣٥).

ومضت الأيام والشهور، وجاءت اللحظة العظيمة لحظة الميلاد، يقصهـا القرآن فيقول «فلما وضعتها قـالت رب إني وضعتها أُنثى والله أَعلم بمـا وضعت وليس الذكـر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» (آل عمران: ٣٦).

فلما وضعت حنَّة بنت فاقود، وتبينت أن الجنين الذي انفصل منها أُنثى، وكانت

ترجو أن يكون ذكراً، ليخدم في بيت الله، فتوجهت إلى الله بالدعاء كالمعتذرة أو الآسفة «إني وضعتها أُنثى وإني سميتها مريم وهي بلغتهم الجارية العابدة. وقد شهد لها رسول الله ﷺ بالخير. فقال عليّ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد» متفق عليه.

ولم يكن للشيطان على مريم سبيل في حملها وولادتها. لقد استعاذت حنّة أُمها بربها؛ وهي التقية الصالحة؛ فعصم الله مريم ببركة الإستعاذة، جاء في صحيح البخاري عن هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل صارخاً من مسِّ الشيطان إيَّاه إلا مريم وابنها».

ومن المُتفق عليه ما رواه البخاري وأحمد أيضاً: «كلُّ ابن آدم يطعن الشيطان في جبينه حين يولد، غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فيه، فطعن في الحجاب».

وتقبَّل الله تلك الوليدة الوديعة المقدَّسة قبولاً حسناً، وأسبغ عليها من فيض نعمائه ورعايته ورضوانه، كقوله تعالى: «فتقبّلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً» (آل عمران: ٣٧). أي رضيها للتحرر وأنبتها نباتاً حسناً، فكانت تشبُّ في كل يوم كما يشبُّ غيرها في شهر، وفي شهر كما يشب غيرها في سنة.

ولمّا وضعتها لفَّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد الأقصى، فوضعتها بين يدي الأحبار أبناء هارون، ولهم يومئذ يكون أمر بيت المقدس كحجبة بني شيبة للكعبة.

وقالت: دونكم وهذه النذيرة.

وقال الثعلبي في تفسيره لهذه الآية: أي سوَّى خَلْقها وخُلقها من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو الكمال بعينه.

وبهذه الكلمات يوجز القرآن الكريم حياة مريم وفضائلها الخَلْقية والخُلُقية.

وكان من علامات رعاية الله لمريم أن جعل قلوب الأحبار المحيطين بها تتعاطف بدافع قوي من الجود والإيثار كلٌّ يود أن يختص بفضل القيام على تربيتها لأنها أولاً ابنة عمران، وكان من خيرة شيوخهم تُقىً وورعاً. وثانياً لأن أُمها نذرتها لله. وإنَّ في خدمتها لله وعبادتها له منذ ذاك اليوم لسبق إلى الخير وتقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى.

من أجل ذلك تنافس الأحبار على كفالة مريم.

فقال لهم زكريا: أنا أَحقُّ بها عندي خالتـها؛ وكان زكريا قد تزوج أشباع بنت فاقود أُخت حنَّة أُم مريم.

فقال الأحبار لـزكريـا: لا نفعل، ولكنَّا نقترع عليهـا: فتكون عنـد من خرج سهمـه. فانـطلقوا، وكـانوا تسعـة وعشرين، إلى نهر الأردن قـريبـاً من أريحـا فـألقـوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة والزبور في المـاء على أن من يجـري قلمه مـع الماء فـلا شأن له بها ومن وقف قلمه فهو صاحب الحظ السعيد بتربيتها. وكانت القـرعة لـزوج خالتها زكريا ـ نبي الله فيما بعد.

وعـاشت مريم في بيت زكـريـا في كنف رحب وأمـان ورغـد، وكفلهـا زكـريـا واسترضع لهـا وضمّها إلى خالتها أُم يحيى، وسـارت مريم في مـدارج الطفـولة نـاعمة البـال، تترعـرع في نضـارة حتى اجتـازت مـرحلة النشـوء وشـارفت مصـيرهـا المُنتـظر ورسالتها المُقبلة، ويمكننا أن نجمل حيـاة مريم في تلك المـرحلة في أُمور أربعـة: أولها منبتها الكريم، وثانيها: إشراف زكريا عليه السلام على تربيتهـا، وثالثهـا: نشأتهـا في أمن ودعة وهناءة، ورابعها: استواء خلْقها وخُلُقها على الكمال.

بقيت مريم في كفالة زكريا عليه السـلام، فلما بلغت مبالـغ النساء ووصلت إلى مرحلة الشباب أوت إلى محرابها الذي هيأه لها زكريـا، وتفرَّغت لعبـادة الله كما نـذرت أُمها، وكان لا يدخله أحدٌ سواها؛ فقد جعل زكـريا عليـه السلام، بـاب المحراب في مكان لا يرقى إليهـا إلاّ بسلّم مثل بـاب الكعبة، ومـا كان يصعـد إليها سـواه، ومعه المفتاح، وكانت إذا حاضت أخرجهـا من المسجد إلى منـزله، تكـون مع خـالتها فـإذا طهرت ردَّها إلى المسجد. وقيل إنما أدخلها المسجد من أجل نـذر أُمها، وإنمـا اقترعـوا عليها بعدما بلغت.

وبقيت مـريم تعبد الله في محـرابهـا، وتقـوم بمـا يجب عليهـا من سـدانـة البيت وخدمته، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صار يُضرب بهـا المثل في بني إسرائيـل في التُقى والصلاح، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة.

وعامَّة العلماء على أن زكريا كفلها. ولم تزل عنده يأتيها بطعامها وشرابها. وكان إذا خرج أَغلق عليها سبعة أبواب على باب المحراب وهو باب الغرفـة، وكان إذا عـاد وجـد أمراً عجبـاً، كان يجـد فاكهـة الصيف في الشتاء، وفـاكهـة الشتـاء في الصيف،

فيتعجب لذلك لأنه لم يحضرها، ولا يصعد إلى المحراب أحدٌ غيره، فيتعجب ويُكبر شأنها، ويسألها وتجيبه بما يزيده إجلالاً لها وتفاؤلاً بها.

يقص علينا القرآن فيقول: «وكفلها زكريا كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب» (آل عمران: ٣٧).

وقال ابن عباس: تكلمت وهي صغيرة.

نشأة السيدة العذراء

نشأت مريم عليها السلام نشأة طُهر وعفاف، وبعدٍ عن الآثام والمحرّمات، فعاشت في جوار بيت المقدس، مكلوءة بعناية الله، محروسة برعايته سبحانه وتعالى.

وانبثق حول مريم نور جديد.. وظهر من مكنون الغيب ما سبقت به كل امرأة قبلها وبعدها؛ ذلك أن الملائكة نزلت عليها بوحي من عند الله. ولم يعهد الناس أن الملائكة تنزل على غير الأنبياء من الرجال...

يقول القرآن الكريم: وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين» (آل عمران: ٤٣).

فهذا وحي سماوي يؤكد لمريم وللناس في شأنها ما رأوا بعضه رأي العين وعرفوه حق اليقين... إنه اصطفاء وتطهير، واصطفاء آخر وتكليف بالقنوت والصلاة... وهذا إيذان بأن مريم وقد اصطفاها ربها للعبادة وطهَّرها تطهيراً كاملاً سوف يصطفيها بعد ذلك لأمر عظيم ستتمخض عنه الأيام... ذلك الأمر الذي أثار عجب الدنيا، وبهر التاريخ، وجدد في الإنسانية حدثاً عجيباً يعتبر من أصدق الآيات الكونية على إبداع الخالق وقدرته... وذلك الأمر هو أنها فيما بعد ستلد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كقوله تعالى: «إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين. ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين. قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون. ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» (آل عمران: ٤٨) أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته.

قالت مريم عليها السلام «كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس سبَّح في بطني وكَبر».

البشارة بالسيد المسيح عليه السلام

لَمّا بلغت مريم مبلغ النساء وأصبحت في سن الثالثة عشرة من العمر، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابها، وسارت جهة الشرق من بيت المقدس، ترويحاً عن النفس، وطلباً للراحة، فبينما هي تسير، إذ فاجأها الملاك (جبريل الأمين) عليه السلام، وقد تمَثَّل لها في صورة شاب وضيء الوجه، حسن الصورة، مستوي الخلق، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، وارتابت في أمره لأنه ظهر لها فجأة، فظنت به الظنون وجعلت تبتعد عنه، وهي تخشى أن يهمّ بها بسوء، في مكان ليس فيه منقذ أو نصير، فلما رأى الأمين جبريل اضطرابها وخوفها، طمأنها وأزال عنها الفزع، وأخبرها بالحقيقة حتى تطمئن على نفسها، وقال الملك مُجيباً لها:

لست ممن تظنين ولكني رسول ربك بعثني الله إليك، ليهب لك غلاماً ذكياً. يكون له شأن عجيب، ويعطيه الله النبوة والحكمة قال تعالى: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسولُ ربك لأهب لك غلاماً زكياً» (مريم: ١٩). قال (أبو حيان في تفسيره): «وإنما تمَثَّل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكيّة لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه. . ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحُسن، وكان تمثله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعِفَّتها».

حين ظهر لمريم بعد ذلك أنَّ الذي عرض لها في خلوتها ليس بشراً إنما هو ملاك كريم. أنِستْ واستبشرت به. ولكنها تعجبّت من قوله حين بشَّرها بالغلام، فهي فتاة بكر لم تتزوج، ولم يقربها أحد من الرجال، ولا تزال عذراء، وهي عفيفة لم تقترف إثماً، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها؟

«قالت أنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيّاً!» (مريم: ٢٠). وقد كان جواب الملاك لها (الأمين جبريل): إنها إرادة الله ومشيئته، فهو جلّ ثناؤه لا يُعجزه شيء وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كُن فيكون «قال كذلِك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً» (مريم: ٢١).

لقد شبَّت مريم عن الطَّوْق راهبة في عبادتها، ملتزمة المحراب لا تخرج منه،

تشير إلى أن الأمين جبريل نفخ في جيب درعها فسرت النفخة المباركة بأمر ربها إلى رحم البتول فكان منها عيسى عليه السلام ويقول المفسرون أنه الذي قام بتلك النفخة هو الأمين جبريل

محصنة لفرجها، حافظة لزمامها، متبتلة في محرابها، متهيئة - وهي لا تدري - لمقابلة الملك.

«ومَرْيَم ابْنت عمْرانَ التي أحصنت فرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيه من رُوحِنَا وصدَّقتْ بكلمات ربِّها وكتُبهِ وكانتْ مِنَ القانتين» فالآية صريحة تنطق أن النفخ صريح في الفرج لا في غيره، تكوّن عيسى من نفخ روح الله في فرج مريم البتول، ويقول المفسِّرون أن الذي قام بتلك النفخة هو الأمين جبريل ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين» (الشعراء: ١٩٤). والذي نزل بالوحي على الرسل الكرام قطعاً إنما هو جبريل عليه السلام؛ ويسمى «روح القدس» ويسمّى «الروح الأمين» عليه السلام.

مدّة الحمل

اختلف العلماء في مدة الحمل، فمن ذلك أنها حملت ساعة واحدة أو ثلاث ساعات أو تسع ساعات، وقيل ثمانية أشهر، رواه ابن عباس رضي الله عنهما. والصحيح ما ذكره ابن كثير رحمة الله تعالى عليه في تفسيره حيث قال: «فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، وهو تسعة أشهر؛ إذ لو كان خلاف ذلك لذُكر، واستدل بعضهم بقوله تعالى: «فحملته فانتبذت به مكاناً قصيًّا، فأجآها المخاض» (مريم: ٢٢). فقد عطف بالفاء وهي تدل على التعقيب، فإن الصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ألم تر إلى قوله تعالى: «ثم خلقنا النُطفة علقة، فخلقنا العلقة مُضغة، فخلقنا المُضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» (المؤمنون: ١٤).

ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه[1].

ظهور الحمل واتهام مريم عليها السلام

يروي ابن كثير أنه لما ظهرت مخايل الحمل على مريم وكان معها في المسجد رجل صالح من أقربائها (ابن عمها) يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٦٤.

ودينها وعبادتها ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول فقال يا مريم: إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي. فقالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حَب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟!.

فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه. واستطردت: أما قولك هل يكون شجر من غير حَب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حَب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب؟ فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أُم فصدَّقها ووقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله عزّ وجل، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لما رأى من كتمانها لذلك. ثم تولى يوسف خدمة المسجد، وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه، وذلك لما رأى من رقّة جسمها واصفرار لونها، وكلف وجهها، ونتوء بطنها،وضعف قوتها، ودأب نظرها، ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك، وكانت خالتها زوج زكريا عليه السلام حاملاً بابنها يحيى. روى السدّي بإسناده عن الصحابة رضوان الله عليهم أن (مريم) دخلت يوماً على خالتها ـ زوج زكريا ـ فقالت لها خالتها: أشَعَرْتِ أني حُبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضاً أني حُبلى؟

فاعتنقتها وقالت لها (أُم يحيى): إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك.

قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام على يحيى، قال: وبلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة[1]

وقد شاع الخبر في بني إسرائيل أن «مريم» حامل، فما دخل على أهل بيت من الهم والحزن كما دخَل على آل بيت زكريا، حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبد معها في المسجد، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام. ويقول (ابن جرير): إنهم أرادوا قتل زكريا ففرّ منهم فلحقوه حتى أمسكوا به ثم نشروه بالمنشار فقُتل صلوات الله عليه بأيدي اليهود ويتفق عامة المؤرخين على أن زكريا نُشر قبل مقتل يحيى. وقال السدّي والكلبي وابن اسحاق: قُتل زكريا وليحيى سبع سنين، وما نُبيء إلا بعد قتل أبيه. قال تعالى: «وآتيناه الحُكم صَبيّاً» (مريم: ١٢) قيل، إنَّ يحيى قال له أتْرابُهُ من الصبيان: إذهب بنانلعب، فقال: ما للّعب خُلِقْت. وقيل إنه نُبيء

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٦٥.

صغيراً، وكان يعظ الناس ويقف لهم في أعيادهم، ومجامعهم، ويدعوهم إلى الله تعالى، ثمّ ساح يدعو الناس[1].

ميلاد السيد المسيح عليه السلام

فلما دنا نفاسها أوحى الله إلى مريم أن اخرجي من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بكِ عيَّروكِ وقتلوا ولدك. فأفضت عند ذلك إلى أختها، وأختها حينئذ حُبلى،[2] وقد بُشِّرت بيحيى، عندئذ خافت على نفسها ووليدها فتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً فلا يراها أحد ولا تراه. وقال ابن وهب: كانت أم يحيى حاملاً به فاستقبلتها مريم وهي حامل بعيسى، فقالت لها أم يحيى: أنت أم عيسى أنت حامل. قالت: ولمَ؟ قالت لأني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك. وولد يحيى عليه السلام في أيام أردشير بن بابك، وقيل في أيام سابور بن أردشير، واتفقوا على أنه قُتل ظُلماً شهيداً، وغضب الله على قاتليه من اليهود وسلَّط عليهم بختنصر وجيوشه، وكان وَعد الله مفعولاً. وقال الكلبيّ: كان زكريا يوم بُشِّر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة، وقيل تسع وتسعين سنة، وعن ابن عباس: كان ابن عشرين ومائة، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ثم عُرِجَ بي إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ففُتحَ لنا، وإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، فرحَّبا بي وَدَعَوا لي بخير» (أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي عن مالك بن صعصعة [الفتح الكبير]). قال المفسّرون أوّل من آمن بعيسى ويحيى عليهما السلام، وقال الثعلبيّ كان مولد يحيى قبل مولد عيسى بستة أشهر. وفي رواية أخرى أن مريم عليها السلام ذهبت هاربة قاصدة أرض مصر، فاحتملها يوسف على ظهر حمار له، فلما كانت على بُعد ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يُقال لها بيت لحم، فأجاءها الطلق فاضطرها وألجأها إلى جذع النخلة وهو ساقها وكانت نخلة يابسة ليس لها رأس ولا سعف، وقال تعالى: فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً» (مريم: ٢٣). أي لم أُخلق ولم أكُ شيئاً قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقال السدّي: قالت وهي تَطلق من الحبل؛ استحياء من الناس؛ يا ليتني متُّ قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل.

---

(١) نهاية الأرب ج ١٤ ص ٢٠١.

(٢) تاريخ الملوك للطبري.

فلما وضعت وهي محزونة، «فنـاداها من تحتهـا ألاّ تحزني قـد جعل ربُـك تحتك سريا» (مريم: ٢٤). قُرئت «من» بفتح الميم أو كسرها، فمن قرأ بالفتح ذهب إلى أن عيسى ناداها لما خرج من بطنها وهو المشهور وبـه قال أكـثر المفسرين ومن قرأ بـالكسر عني أن الذي ناداها هو الملك جبريل عليه السلام من أسفـل الـوادي وولُـد عيسـى عليه السلام ببيت لحم يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ديسمبر، في زمن الشتاء «قد جعل ربُك تحتك سريًا» السرّي هو النهر الصغـير. وقال الحسن: المـراد به عيسى عليه السلام، لأنه كان سريّاً أي عـالياً رفيعـاً، وقال ابن الأنبـاري: رجع الحسن عن هـذا القول إلى القـول الأول، والأول أصح لـوجهين: أحـدهما: لأنها لم يكن عنـدها طعـام ولا شراب، فنوديت قـد أطلعنا لـك الرُطب من النخلة، وأجـرينا لـك النهر. والثاني: لأن الله تعالى جعل آيتها في النهر، وكان طوع أمرهـا، إن أمرتـه جرى، وإن أمرته وقف. وقال ابن عباس(١): ضرب جبريل بجناحه الأرض، فجرى النهر من عين عذبة بـاردة، وأورقت النخلة بعد يبْسهـا وأرطبت. وقال مقـاتل: لمـا سقط عيسى إلى الأرض ضرب برجله، فنبع الماء، وأطلعت النخلة، وأحدقت بها الملائكة.

وقيل كان يـوسف النجار معهـا فأوقـد لها نـاراً، وأطعمها سبـع جوزات وقـال وهب(٢): لمـا وضعته خـرّت الأصنام سُجّـداً لله، فأخـبرت الشيـاطـين إبليس، فبثَّهم في الدنيا، أي جعلهم أشتاتاً، وخرج هو فجاء إلى المكان الذي فيه عيسى والملائكة قد حفّت به، فلم يتجاسر أن يدنو منه، فرجع إلى أعوانه، وقال لهم: وُلـد مولـود عظيم معه نور، لم أقـدر على الـدنو منـه، ومن عظم أمـره أن الله كتَم عني حالـه، ولم تضع أُنثى إلا وأنا حاضرها. ثم مشى في الناس، فأشاع الفاحشة.

وقوله تعـالى: «وهزّي إليـك بجـذع النخلة» (مـريم: ٢٥) أمـر من الله تعـالى بتكلّف الكسب في الرزق، وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غـير تكسّب كما قـال تعالى: «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مـريم أنّى لك هـذا قـالت هو من عنـد الله إن الله يرزق من يشـاء بغير حسـاب» (آل عمران: ٣٧) قـال العلماء: كـان قلبها فـارغاً لله، ففـرّغ الله جـارحتهـا عن النَصَب، فلما ولـدت عيسى وتعلّق قلبها بحبه، وكَلَها الله إلى كسبها، وردَّها إلى العادة في التعلّق بـالأسباب، وفي معناه أَنشدوا:

---

(١) العرائس ص ٣٨٤.

(٢) المرجع نفسه.

ألم تـر أن الله قـال لمـريـم إليـك فهُـزِّي الجـذع يسـاقط الـرطب
ولـو شـاء أحنى الجـذع من غير هزِّهـا إلـيهـا، ولـكن كـل شيء لـه سـبب
وقـد كـان حـبُّ الله أولى بـرزقـهـا كـما كـان حُب الخلق أدعى إلى النصَب

ثم إن النخلة كـانت خضراء، ولكنه كـان زمان الشتـاء، فصار وجـود الثمر في غير إبانه آية، وكان الجذع يابساً فهزَّته، فاخضرَّ وأورق وأثمر في لحظة.

يقول صاحب أحكـام القرآن: دخلت بيت لحم سنـة خمس وثمانـين وأربعمائـة، فـرأيت في متعبَّدِهم غـاراً عليه جـذع يابس كـان رُهبانهم يـذكرون أنـه جـذع مـريم بإجماع، فلما كـان في المحرم سنـة اثنتين وتسعـين دخلت بيت لحم قبل استيـلاء الروم عليـه لستة أشهـر، فرأيت النـار في المتعبَّد خـالياً من الجـذع. فسألت الـرُهبـان بـه، فقالوا: نخر وتساقط، مع أن الخلق كانوا يقطعونه استشفاء حتى فقد[1].

وقوله تعـالى: «تساقط عليـك رُطباً جنيـاً» (مـريم: ٢٥) وقيـل إنها قـالت (أي مـريم): لا تعجبوا أنه أراد أن يكون في يـدها معجـزة، كـما جعـل معجـزات بعض الأنبياء في أيديهم. وقيـل إنها قالت بلسـان الحال لا تعجبـوا من ولد بغـير أب، فهذه النخلة اليـابسة من غـير تلقيح ولا فحـل قد تسـاقط منها الـرُّطب. وقيل هُـزِّي إليك شجرة التوحيد والتمكين تَساقط عليكِ رُطَبُ الرضى والأنس والصدق واليقين.

فإن قيل: فلِمَ أجرى النهر بغير سعيها ولم يعـطها الـرطب إلاّ بالهـزّ؟ قلنا: أراد أن يُـريها أنـه سبحانـه يفعل بسبب وغـير سبب. فكُلي من الـرطب واشربي من النهـر وقرِّي عيناً بولادة عيسى «فإمَّا تَريِّن من البشر أحـداً فقولي إني نـذرت للرحمن صومـاً فلن أُكلّم اليوم إنسيا» (مريم: ٢٦) صوماً: أي صمتاً، وإنما أُمرت بـالسكوت، لأنها لم يكن لها حجة عند الناس ولا ما تدفع به الخصوم.

وإنـما أمرهـا بالسكـوت في بدايـة الحال لعـدم البرهـان. فلما تكلّم عيسى عليه السـلام زال السكوت. وقـال الكلبيّ: حملها يـوسف النجار وابنهـا، فأدخلهـا غاراً، فأقامت فيه أربعين يوماً حتى تعالت عن نفاسهـا، فخرجت بـه، فذلـك قولـه تعالى: «فأتت به قومها تحمله» فلما رأوه حزنوا وبكوا وكانوا قومـاً صالحين وقالـوا: «يا مـريم لقـد جئت شيئاً فـرياً» (مـريم: ٢٧) أي عظيـماً «يا أُخت هـارون» عنوا هـارون أخا موسى بن عمران، لأن أُمها كانت من نسله. وقيـل إن هارون كـان رجلاً صـالحاً من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ص ١٢٥٢.

بني إسرائيل شيَّع جنازته من أولاد الأنبياء أربعون ألفاً كلهم اسمه هارون، شبهوها به في صلاحه، وكانت كذلك. وقيل إنه كان في بني إسرائيل رجل اسمه هارون من أفسق الناس، فشبهوها به. وقيل إن هارون اسم أخ لها من أُمها.

«ما كان أبوك امرأ سَوْء» أي زانياً «وما كانت أُمُّك بَغيًا» (مريم: ٢٨) أي فاجرة، فمن أين لك هذا الولد؟ «فأشارت إليه» أن كلِّموه «قالوا كيف نُكلِّم من كان في المهد صبيًّا» (مريم: ٢٩) قال مقاتل: كلّمها في الطريق، فقال لها: يا أُماه أبشري فإني عبد الله ورسوله ومسيحه، فكانت على ثقة من كلامه.

«قال إني عبدُ الله أتاني الكتاب» وهو الإنجيل ومعناه سيؤتيني، وإنما نطق في أول كلامه بقوله عبد الله ردًّا عليهم؛ لأنه علم أنهم يقولون ابن الله، فاعترف بالعبودية والنبوَّة، فارتفعت النبوَّة ضرورة.

وقال مجاهد: كان ثديها في فمه فنزعه وكلمهم جالساً. قوله أتاني الكتاب» أي علم التوراة، وأنا في بطن أُمي «وجعلني نبيّاً» (مريم: ٣٠) أي سيجعلني «وأوصاني بالصلاة والزكاة» (مريم: ٣١) وهذا يدل على أنهم كان لهم شرائع وعبادات.

وولد عيسى عليه السلام في زمن أردشير بن بابك بعد الاسكندر بثلاثمائة سنة، وكانت المملكة في ذلك الوقت لملوك الطوائف، والرئاسة بالشام لقيصر ملك الروم، وكان هيرودوس[1] نائباً عنه بالشام.

هيرودوت يتآمر على قتل المسيح وخروج مريم وابنها إلى مصر

وفي ليلة ميلاد السيد المسيح يحدثنا الطبري أن بعض الكهنة من بني إسرائيل طلع عليهم نجم أنكروه، وكانوا قبل ذلك يتحدثون أنَّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال. فخرجوا يريدونه، ومعهم الذهب والمُرّ واللّبان، فمرّوا بملك من ملوك الشام (هيرودوت)، فسألهم: أين يريدون؟

فأخبروه بذلك، قال: فما بال الذهب والمرّ واللّبان أهديتموه له من بين الأشياء كلها؟ قالوا: تلك أمثاله: لأن الذهب هو سيّد المتاع كله، وكذلك هذا النبي هو سيّد أهل زمانه، ولأن المرّ يُجْبرُ به الجرح والكسر، وكذلك هذا النبيّ يشفي به الله كلَّ

(١) هيرودوت.

سقيم ومريض؛ ولأن اللّبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء لا يُرفع في زمانه أحد غيره.

فلما قالوا ذلك لهيرودوت، حدّث نفسه بقتله، فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك، فإني أرغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره، فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدية إلى مريم، وأرادوا أن يرجعوا إلى هذا الملك ليُعلموه مكان عيسى، فلقيهم من أخبرهم بما عزم عليه هيرودوت من قتل عيسى عليه السلام، فانصرفوا في طريق آخر.

ونتابع قصة المؤامرة على عيسى عليه السلام في الرواية التالية تقول: إنه لمّا شاع خبر عيسى عليه السلام قصد الملك (هيرودوت) وبنوا إسرائيل قتله، وذلك لأنهم نظروا إلى نجم طلع يكون سبباً لظهور دين عيسى عليه السلام.

فبعث الله مَلَكاً إلى يوسف النجار يأمره بإخراج مريم وابنها إلى مصر، فسار بهما على حمار.

وكانت مريم تغزل الكتّان وتلقط السنبل وتتقوّت به، حتى وردوا أرض مصر فهي الربوة التي قال الله فيها «وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» (سورة المؤمنون: ٥٠). وفي هذا تكريم من الله تعالى لمصر بمريم وابنها عليهما السلام ووجه الإشارة إلى ذلك ما يقوله ثُقاة المفسرين من أن الربوة ذات القرار والمعين هي مصر كما قدر ذلك ابن زيد في رواية الإمام القرطبي.

حياة مريم والسيد المسيح في مصر

لما ذهب يوسف النجار بعيسى وأُمه إلى مصر، نزلوا في دار دِهْقان من أهل مصر، فسُرق له مال، فضاق صدر مريم، فقال لها عيسى، وكان قد ترعرع: يا أُمّه، أتحبين أن أدله على ماله؟

قالت: نعم يا بني!

قال: قولي له يجمع لي مساكين داره، وكان لا يسكن في دار الدِهْقان إلا المساكين فلم يتهمهم، فجمعهم الدِهْقان وفيهم رجلان أعمى ومُقْعَد. فأمر عيسى عليه السلام بأن يحمل الأعمى المُقْعَد على عاتقه، وقال له قم به:

فقال الأعمى: لا أقدر، وإني ضعيف.

فقال له عيسى عليه السلام: كيف قويت البارحة على حمله إلى الخزانة حتى أخذ المال؟ فأنكر، فضربوه، فأقرَّ وردَّ المال، فوضعه الدهْقان في خزانتـه، وقال: يـا مريم خذي نصفه، قالت: إني لم أُخلق لذلك.

قال الدِّهْقان: فأعطيه ابنَك، قالت: هو أعظم مني شأناً، وكانت هذه أول آية رآها الناس من عيسى عليه السلام.

وكانت مريم تخاف على عيسى عليـه السلام، فكانت تكتم أمره من الناس، لا يطّلع إليه أحـد وكانت لا تـأمن عليه ولا عـلى معيشته أحـداً، وكانت تلتقط السُنبـل حيث ما سمعت بالحصاد، والمهد في منكبها والوعاء الذي تجعل فيه السُنبـل في منكبها الآخر. وقال مجاهد: كان عيسى يلقط مع أُمه السُنبل، فـإذا عُرِفـا في مكان تحـوَّلا إلى غيره، وأين ما أدركه المساء بات، ولم يمسَّ امرأة ولا طيباً، ولم يلبس قطنـاً ولا كتانـاً، ولم يجعل بينه وبين الأرض حائلاً، ويمشي وعليه بـرنسٌ وبيده عصـا، ويقنع بـاليسير، ويقـول: هذا لمن يمـوت كثير.وقـد اتفق أهل العلم عـلى أن مـا أظهـره الله لعيسى من الخوارق قبل النبوّة يُسمّى إرهاصاً وبعد النبوّة ونزول الوحي يُسمَّى معجزة.

ومن هــذه الإرهـاصــات مـا رواه عكــرمـة قــال: كـان عيسى عليــه السـلام يتحدث مع الصبيان في الكتّاب بمـا يأكلون في بيـوتهم، فيخبرون أهـاليهم، فيقولـون لهم: إيَّاكم وهذا الساحر. وحبسوا الصبيان في بيت، وجـاء عيسى يطلبهم، فقـالوا: ليسوا ها هنا. قال: فما في هذا البيت؟ قالوا: خنازير. قـال: خنازيـر، إن شاء الله، ففتحوا الباب وإذا هم خنازير.

ومنها، قال الكلبي: ذهبت به أُمه عليهـما السلام إلى صـاحب مصبغة، بعـدما خرج من الكتّاب، فـاجتمع عنـده ثياب كثـيرة، وعرض لـه سفر، فقـال لعيسى: أنا مسافر، وعندنا ثياب مختلفة الألوان، وقد وضعت عـلى كل ثـوب منها عـلامة بـاللون الذي تُصْبَغُ به، فلا أُقدم إلا وقد فرغت منها وسافر، وأخذ عيسى الثياب، وألقاها في المصبغة جميعها عـلى لون واحـد. وقال لهـا: كوني مختلفـة الألوان بـإذن الله، على مـا أُريد. وقَدِمَ صاحب المصبغة، فوجد الثياب وقد وُضعت كلها على لـون واحد فقـال: لقد أفسدتها عليّ. فقال له: على رسلك. ثم أدخل يده في المصبغة، وأخرج كلَّ ثوب عـلى لون العـلامة التي عليـه، ما بـين أحمر وأصفـر وأخضر وغيره. فـآمن به الصبّـاغ وأصحابه، فيُقال إنهم الحواريون.

ومنها أن الدهقان الذي كانا يقيمان عنده هو وأُمه، كان له ولد يتزوج، فأقام له

عُرْساً جمع فيه عدد كبير من أهل مصر، فلما انتهى العُرْس، زاره قوم من أهل الشام على غير موعد منهم، حتى نزلوا به، وليس عنده يومئذ شراب، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتاً من بيوت الدِّهْقان فيه صفَّان من جرار، فأمَرَّ عيسى يده على أفواهها، وهو يمشي، فكلّما أمرَّ يده على جرّة امتلأت شراباً، حتى أتى عيسى على آخرها، وهو يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة. فلما فعل ذلك عيسى فزع الناس لشأنه وما أعطاه الله من ذلك، وهنا تتجلى عناية الله للسيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام، ورعايته لهما، فيهلك هيرودوت الملك، ويجيء الأمر الإلهي بوحي من عنده إلى مريم أن يعودا إلى الشام.

خروج مريم وعيسى إلى الشام

لما مات الملك هيرودوت، أوحى الله إلى أمه مريم، أن ارجعي به إلى الشام، ففعلت الذي أُمِرت به، قال كعب: فخرج هو وأُمه ويوسف النجار، فنزلوا بالناصرة، فنسبوا إليها. وأخذ في مداواة المرضى والعميان، فجاء إبليس ومعه شيطانان، وتصوّر هو في صورة آدمي، فجلس بمحضر من الناس، وأشار إليه، وقال: هذا تكلم في المهد، ويُبريء الأكمة والأبرص، ويُحيي الموتى. فهذا هو الله تعالى.

فقال أحد الشياطين: أخطأت أيها الشيخ، لا يُتصوَّر أن يتجلى اللهُ لعباده، ولكن هو ابن الله.

فقال الآخر: أخطأتما، إنما [هو] إله آخر.

فصار الناس فيه ثلاث فرق: نسطورية، ويعقوبية، وملكية. وقالوا بالتثليث!!!

نزول الوحي ورسالة المسيح عليه السلام

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله في التبصرة: أوحى الله إلى عيسى وهو ابن ثلاثين سنة، وأنزل عليه الإنجيل. وكان يجتمع على بابه خمسون ألفاً فيداويهم بالدعاء؛ وكان يقول لأصحابه: أهينوا الدنيا تكرم الآخرة عليكم، إنكم لا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون.

وقال مجاهد: كان عيسى عليه السلام آدم، سبط الشعر، وقيل أبيض، لم يدهن رأسه قط، وكان يمشي حافياً، ويركب الحمار، ويجلس على الأرض، ويأكل الطعام، ويصوم النهار، ويقوم الليل، وكان يجتمع على بابه كلَّ يوم من المرضى والزَمنى[1] خمسون ألفاً فيداويهم بالدعاء فيبرأون، فاتبعه خلق كثير، وسألوه أن يحيي سام بن نوح، فجاء إلى قبره وناداه يا سام، فانشق القبر عنه، وقام ينفض التراب عن رأسه، وقال له عيسى عليه السلام: منذ كم مت؟ قال: منذ أربعة آلاف سنة، أو ثلاثة آلاف وما بردت عني حرارة الموت.

ثم قال لهم: هذا عيسى، روح الله وكلمته وآيته، فاتَّبعوه ولا تعصوه.

وقال السدِّي: وصف لهم عيسى عليه السلام سفينة نوح، فقالوا: نحب أن نرى من شهدها. فأتى بهم إلى البثنيَّة من أرض حوران، فسأل الله، فأقام سام بن نوح وقد شاب نصف رأسه، فقال: أقامت القيامة؟ قال: لا، ولكني دعوت الله باسمه الأعظم، فأحياك، فنعت له السفينة، ثم عاد إلى قبره.

وقال ابن عباس: كان عيسى عليه السلام يقول: لباسي الصوف، وشعاري الخوف، وبيتي المسجد، وطيبي الماء، وآكل من نبات الأرض، وإدامي الجوع، ودابتي رجلاي، وسراجي القمر، وصلاتي في الشتاء في مشارق الشمس، وفاكهتي وريحاني بقول الأرض، وجلسائي المساكين والزَمنى، وأُصبح وأُمسي وليس لي شيء، وأنا طيِّبُ القلب، فمن أغنى مني؟ وليس لي ولد يموت ولا بيت يخرب، ولا أدَّخر شيئاً لغد.

وقال محمد بن سباع النميري: بينا عيسى عليه السلام يسبِّح في بعض بلاد الشام، اشتد به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه، فرُفعت له خيمة من بعيد فيها امرأة، فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل، فأتاه، وإذا في الكهف أسد، فرفع يديه وقال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأجابه الجليل:

مأواك عندي في مستقرِّ رحمتي، لأزوِّجنَّك يوم القيامة مائة حوراء، ولأطعمنَّ في عرسك أربعة آلاف عام مثل عُمر الدنيا، ولآمرنَّ منادياً ينادي: أين الزاهدون في الدنيا، أحضروا عرس الزاهد عيسى بن مريم.

---

(١) الزمنى: جمع زَمِن، والزمانة: العاهة.

وقال ابن المسيَّب: مرَّ عيسى عليه السلام في سياحته بنهرين يجريان من أصل جبل، فوقف ينظر إليهما، فأنطق الله الجبل وقال له: يا عيسىممَّ تتعجب؟!

فقال: من هذين النهرين!

فقال: أما الذي عن يميني فدمع عيني اليمين، وأما الذي عن يساري فدمع عيني اليسار.

قال: فما سبب بكائك؟ قال: خوفي من نار وقودها الناس والحجارة، فسل ربَّك أن يؤمنني إيَّاها، ولا يجعلني من وقودها، فسأل الله عيسى فيه فقال الله تعالى: قد أمنته منها. فأخبره عيسى، فمدَّ الوادي من الجبل إلى الجبل، وارتفع الماء إلى أعلاه، وكاد عيسى عليه السلام يغرق، فقال له عيسى عليه السلام: ما هذا؟

فقال الجبل: يا روح الله، تلك دموع الخوف والحزن، وهذه دموع الشكر والحمد.

وقال الغزالي: اجتاز عيسى عليه السلام بقرية خراب، وأهلها موتى على الطرق، فقال عيسى عليه السلام: يا معاشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخط، ولو ماتوا عن رضىً لتدافنوا؛ فأوحى الله إليه: إذا جاء الليل فسلهم. فنادى عيسى عليه السلام في الليل: يا أهل هذه القرية، فأجابه واحد منهم: لبيك يا روح الله. فقال: ما بالكم كذا؟

فقالوا: بِتْنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية.

قال: ولِمَ؟ قال: بحبِّنا الدنيا.

قال: وكيف كان حبكم لها؟

فقال: حبُّ الصبيِّ لأمه، إن أقبلت فرحنا وإن أدبرت حزنًا. ثم قال: يا نبيَّ الله، ولم أكن منهم، وإنما أتيتهم زائراً، فنزل عليهم السخط، فعمَّني معهم. قال: وأين أهلها؟

قال: قد أُلجموا بلجم من نار، فلا يقدرون على الكلام.

فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: والله لأكْلُ خبز الشعير والنوم على التراب ولبس المسوح أحسن حالاً من هؤلاء؛ يا معشر الحواريين خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحقّ، كونوا مستعدين لئلا تجوز عليكم الزيوف.

وقال وهب: كان عيسى عليه السلام يمشي على وجه البحر، ولم يكن أحبَّ إليه من أن يُقال له يا مسكين.

من هم الحواريون؟

يجيب الحق تبارك وتعالى آمراً عباده المؤمنين[1] أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: «من أنصاري إلى الله» أي من مُعيني في الدعوة إلى الله عز وجل[2].

«قال الحواريون» وهم أتباع عيسى عليه السلام «نحن أنصار الله» أي نحن أنصارك على ما أُرسلت به ومؤازروك على ذلك ولهذا بعثهم دُعاة إلى الناس في بلاد الشام إلى الإسرائيليين واليونانيين.

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (سورة الصف: ١٤).

وترى المعجزات، بوحي من الله، على يد سيدنا عيسى عليه السلام، فيقص علينا القرآن الكريم منها[3] إنزال المائدة. قال الله تعالى: «إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» (المائدة ١١٢) والحواريون الخواصّ الأصفياء، والوزراء ممن يصلح للخلافة ويُستعان به في النوائب.

وقيل: إنما سمُّوا بذلك لبياض ثيابهم. وقيل: إنهم القصارون.

قال وهب: مرَّ عيسى عليه السلام على بحيرة طبرية، فرأى عليها قصارين. فدعاهم إلى الله، فآمنوا.

وقيل: إنهم المجاهدون. وقيل: إنهم الصيادون الذين يصيدون السمك. وقيل: إنهم الملوك.

---

(١) المقصود أصحاب النبي ﷺ.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) العرائس ص ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٧.

وقيل: سمُّوا بـذلك لصفـاء قلوبهم. وكانـوا اثني عشر رجلاً تبعـوا عيسى عليه السـلام، وآمنوا بـه. وأسماؤهم: شمعـون ولوقـا ويوحنـا ومـرقس وتـومـا وبـطرس ويعقـوبس ويُحَنّس وأنداريس وفيلبس ومتى وتوماس ورأسهم شمعـون. والذين نقلوا الإنجيل منهم أربعة: شمعون وبطرس ويعقوبس ويُحنّس. واتفقوا على أن عيسى عليه السلام بعث شمعون إلى أنطاكية في قوله تعالى: «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون» (يس: ١٣) وكانوا يُسمّون يحيى بن زكريا عليهما السلام المعمداني، لأن عيسى عليه السلام عمده في الأردن عند أريحا، وقيل في بحيرة طبرية.

وكان إذا جاعوا ضرب بيده الأرض، فظهر لكـل واحد رغيفـان، وإذا عطشـوا يضرب الأرض بيده فينبع الماء، فقالوا: يا روح الله من أفضـل منا، ونحن إذا جُعنـا أُطعمنا وإذا عطشنا سُقينا؟

فقال: أفضل منكم من عَمِلَ بيده وأكل من كسبه!

قال ابن عباس: فصاروا قصّارين يغسلون الثياب بالكـراء، وقال مجـاهد: مـرَّ بهم عيسى عليـه السلام وهم يصيـدون السمك من بحـيرة طبريـة، فـدعـاهم إلى الله وقال: تعالوا حتى نصيد البشر فاتّبعوه، وقيل إنما قال الحواريون ذلك قبل أن يصحبوه ويشاهدوا معجزاته.

ثم قول عيسى عليه السلام لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنـين» (المائـدة: ١١٢) أتنسبـون إلهكم إلى العجـز «قـالـوانـريـد أن نـأكـل منهـا وتـطمئن قلوبنـا ونعلم أن قـد صدقتنـا» بأنـك رسول الله، وقـد أجاب دعـاءك «ونكون عليهـا من الشاهـدين» (المائدة: ١١٣) لله بالقدرة ولك بالرسالة، قال عيسى: «اللهم ربنا أنزل علينـا مائـدة من السماء تكون لنا عيداً» ـ والعيد من العود ـ وأنه منك نستدلُّ على قـدرتك، وارزقنـا الشكر على نعمـك، «وأنت خير الـرازقين» (المائدة: ١١٤) «قـال الله» مُجيباً لهم «إني مُنزّلها عليكم فمن يكفـر بعد منكم فـإني أُعذِّبـه عذابـاً لا أُعذِّبـه أحداً من العـالمين» (المائدة: ١١٥) وهو المسخ قردة وخنازير.

قال الحسن: لما سمعوا هذا الشرط قال بعضهم: لا حاجـة لنا فيهـا، واختلفوا هل نزلت أم لا على قولين، أحدهما: ما نزلت، وإنما هـو ضرْب مثل،ضرَبـه الله لهم، لأن الله نهاهم عن سؤال الآيات لانتسابـه، قال مجـاهد. والقـول الثاني: أنها نـزلت، وعليه عامة العلماء.

قال وهب[1]: وقف عيسى عليه السلام خاشعاً خاضعاً بين يدي الله تعالى يبكي ويتضرّع، وإذا بمائدة قد نزلت بين غمامتين، واحدة تحتها وأُخرى فوقها فاستقرت بين يديه، وعليها سُفْرة خضراء، والقوم ينظرون إليها، وهي مُغطاة بمنديل، وكان عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك، وحولها البقول ما خلا الكراث، وعند ذَنَبها سُكُرجة فيها خل، وعند رأسها أُخرى فيها ملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمانات[2]. وقيل كان عليها خبز ولحم. وقيل خبز وسمك. وقيل سبعة أرغفة من شعير وسبع سمكات، وقيل سمك ولحم. وقيل كان عليها أثمار الجنّة وسمن وعسل.

فقال عليه السلام: أيكم أوثق في نفسه فليكشف هذا المنديل. فقالوا: يا روح الله أنت أولى؛ فكشفها.

فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أَمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الجنّة؟ فقال: لا من هذا ولا من هذا، ولكن شيء قال له الله كن فكان.

فقال الحواريون: نريد أن تُرينا آية في هذه الآية، فقال: سبحان الله، ما اكتفيتم بها؟! ثم أشار إلى السمكة وقال لها: عودي بإذن الله كما كُنت طريَّة حيَّة؛ فاضطربت على المائدة. فقال: عودي مشوَّية فعادت، فقال: كلوا. فقالوا: أنت أول من يأكل. فقال: معاذ الله، إنما يأكل منها من سألها، فلما رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة؛ فدعا عيسى عليه السلام الفقراء والمساكين والزمنى، فقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم ليكون مهنأً لكم وعقوبة لغيركم. قال وهب: فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان، صدروا عنها شباعاً، وهي على حالها. فصحَّ كل مريض واستغنى كل فقير أكل منها. ثم كانت تنزل عليهم بعد ذلك، فيزدحمون عليها. وكانت تنزل يوماً وتغيب يوماً، فنزلت أربعين يوماً.

وقال لهم عيسى عليه السلام: كلوا ولا تدَّخروا، فادَّخروا منها فمُسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس: إنما مُسخوا لأن الذين أكلوا منها لما رجعوا إلى قومهم قالوا لهم: سحر عيسى أعينكم. وبلغ عيسى عليه السلام، فدعا عليهم، فمُسخوا وماتوا بعد ثلاث.

---

(١) العرائس ص ٣٩٨.

(٢) العرائس: على واحد منها زيتون والثاني عسل والثالث سمن والرابع جبن والخامس قديد.

قالوا: ولم يعش مسخ أكثر من ثلاث. وقيل: إنهم خبأوا منها لأنهم ظنوا أنها لا تنزل بعد ذلك. وقال قتادة: تُنزل متى أرادوا كالمنِّ والسلوى.

وقال سليمان: لما خانوا مُسخ في يوم وليلة ثلاثمائة وثلاثون رجلاً باتوا على فرشهم مع نسائهم أصبحوا خنازير يسعون في الطرقات، ويأكلون القذرات، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام، فبكوا بين يديه، فرقَّ لهم، وسأل الله فيهم، فقال الله تعالى: أكتبُ على نفسي أنَّ من كفر بعد إنزالها «فإني أُعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين».

وقال عمّار: لما خصَّ بها الفقراء والمساكين تكلم الأغنياء بالقبيح، وارتابوا.

ومنها؛ قال وهب بن الوردة: بلغنا أن عيسى عليه السلام مرَّ بلصّ في قلعة، ومعه رجل من الحواريين، فلما رآهما اللصّ ألقى الله في قلبه التوبة، فقال في نفسه: هذا عيسى روح الله وكلمته وهذا حواريّه، ومن أنت يا شقي يا لصّ بني إسرائيل، قطعت الأرض، وقتلت، وأخذت المال؟ ثم هبط من قلعته نادماً تائباً على ما كان منه. فلما لحقهما قال لنفسه: تريد أن تمشي معهما، لست أهلاً لذلك، أمشي خلفهما، كما يمشي الذنب الخطّاء. فالتفت إليه الحواري فعرفه، فقال في نفسه: أنظروا إلى هذا الخبيث الشقي ومشيه وراءنا؛ فاطّلع الله على ما في قلوبهما من توبة اللص وما بدا منه، وازدراء الحواري به وتفضيله نفسه عليه، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن مُرْ الحواري ولصّ بني إسرائيل أن يستأنفا العمل. أما اللص فقد غفرت له ما مضى بندامته وتوبته، وأما الحواري فقد أحبطت عمله لعجبه بنفسه وازدرائه لهذا التائب.

رفع عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: «إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ» (آل عمران: ٥٥).

قال علماء السير: سبب رفعه أن اليهود حسدوه على مثل ذلك وظهور دينه ومعجزاته، فتآمروا على قتله. قوله تعالى: «فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر» تيقَّن الفشل استنفر الحواريين فقال: «من أنصاري إلى الله»؟ (آل عمران: ٥٢) أي من أعواني؟. قال علماء السير: لما بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل كذَّبوه، فخرج هو وأُمه يسبحان في الأرض، فمرّوا بالحواريين، وكلهم يصيدون السمك، فقال: ما تصنعون قالوا: نصيد السمك، فقال تمشون معي حتى نصيد بني آدم؟ فقالوا: من أنت؟ قال: عيسى بن مريم، فآمنوا به، وانطلقوا معه.

فلما رأت اليهـود مـا يبـدو منـه من المعجـزات والآيـات نسبـوه إلى السحـر فنهـوه عن ذلـك ، ونهوا النـاس عنـه ، فلم ينتهـوا، فعـزمـوا عـلى قتله، فـاستنفـر عليهم الحواريين، فقال: «من أنصاري إلى الله قـال الحواريـون نحن أنصار الله آمنـا بالله واشهد» علينا يا عيسى «بأنَّا مُسلمون» (آل عمران: ٥٢).

وقصد اليهود قتله، وطلبوه أشدَّ الطلب، وأخبروا الملك، وكان يهوديـاً، فرِكب بنفسه ومعه اليهـود، فدخـل عيسى عليه السـلام خَوْخَـة[1]، ووقف الملك على بـابها، فقال رجل: أنا أدخل خلفه. فدخـل، فألقى الله عليـه شُبْهة عيسى عليـه السلام من الكوة (الفتحة) التي في الخوخة، وخرج الرجل إلى أصحابـه، فقال: ليس في الخـوخة أحد. فقالوا: بلى، أنت هو.

فقتلوه وصلبوه. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: «ومكـروا ومكر الله والله خير المـاكرين» (آل عمـران: ٥٤) والمكر من الخلق الخـداعُ، ومن الله تعالى المجـازاة على الأعمال.

وقال وهب: نصبوا لعيسى عليه السلام خشبة ليصلبوه عليها، فأظلمت الدنيا، وأرسل الله الملائكة فحالت بينـه وبينهم، وهناك رجـل يُقال لـه يهوذا وهـو الذي دلّهم عليه، فصلبوه.

يقول أبو العلاء المعري في قصيدة اللزوميات:

فعجبـاً للمسيـح بين أُنـاسٍ ... وإلى غير والـد نسبـوه
أسلمتـهُ إلى اليهـود النصـارى ... وأقـرّوا بـأنهم صلبـوه
يُشْفـق الحـازم اللبيـب عـلى ... الطفـل إذا مـا لـدّاته ضربـوه
فـإذا كـان مـا يقـولـون في عيسى ... صحيحـاً فـأيـن كـان أبـوه
كيـف خـلّى وليـده للأعـادي ... أم يظنـون أنهم غلبـوه

وقـال مقاتـل بن حيَّان: جمع عيسى عليـه السلام الحواريين في تلك الليلة، وأوصاهم وقال: ليكفُرنَّ بِي واحد منكم ويبيعني بدراهم. ثم تفرّقوا. ودخل خـوخة. وجاءت اليهود تطلبه، فدلَّهم عليه بعض من كان معه، وأعطوه ثلاثين درهماً، فـألقى الله عليـه شَبَه عيسى، فصلبوه.

وقـال مجـاهـد: دخـل عيسى عليـه السـلام الخـوخـة، ومعـه سبعـة عشر من

(١) خباء صغير.

الحواريين، فأحاط اليهود بهم، فقال عيسى عليه السلام: من يبيع نفسه منكم بالجنّة؟

قالوا: وكيف؟ قال: فيُلْقى عليه شبهي، فيُصلب، فيكون رفيقي في الجنّة. فقال شاب منهم: أنا.

فألقى الله عليه شبهه، فقُتل، ورُفع عيسى عليه السلام.

وقد اختلفوا في اسم المصلوب الذي دلَّ عليه على أقوال: أحدهما يهودي من اليهود، والثاني من الحواريين واسمه يودس، والثالث شمعون، وقيل جرجس، وكان قد آمن بعيسى عليه السلام. ويُقال له ابن العجوز، وقيل إنه ندم على ما فعل فخنق نفسه وصُلِب.

وقال ابن عباس: رُفع إلى السماء لثلاث ساعات مضين من الليل، وقيل من النهار، وكُسي الريش، ونُزعت منه لذة المطعم والمشرب، فصار إنسياً مَلَكياً سماوياً أرضياً.

وقال مقاتل: لا خلاف بين النصارى واليهود أن عيسى عليه السلام صُلِب، ولا خلاف بين المسلمين أن المصلوب غير عيسى عليه السلام. قال الله تعالى: «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم» (النساء: ١٥٧).

وقال ابن أبي بخيح: جاءت مريم بعد أيام إلى الخشبة، ومعها امرأة كان عيسى عليه السلام دعا لولدها فشُفي من المرض، فوقفتا تبكيان، فجاءهما عيسى عليه السلام، فقال: ما لكما تبكيان؟ فقالتا: عليك. فقال: إن الله رفعني إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شُبِّه لهم.

وقال كعب: وجدت في بعض الكتب أن الله تعالى قال بعد سبعة أيام: يا عيسى إنزل إلى مريم المجدلانية - نسبها إلى قرية بالجبل يُقال لها المجدل - فإنه لم يبك عليك أحدٌ بكاءها، ولم يحزن عليك حُزنها، ثم إجمع الحواريين وبثَّهم في الأرض دعاةً إليَّ، فنزل على جبل بيت المقدس، فاشتعل نوراً، وجمع الحواريين، وبثّهم في الأرض، ثم رفعه الله إليه، وتلك الليلة التي يُدخِّنُ فيها النصارى.

واختلفوا في تفسير قوله تعالى: «إني متوفيك ورافعك إليَّ» (آل عمران: ٥٥) على أقوال، أحدهما: إني قابضك ورافعك إليَّ من غير موت، ودليله قوله تعالى: «فلمّا توفّيْتني» (المائدة: ١١٧) أي رفعتني وأنا حيٌّ وافياً لم ينالوا مني شيئاً.

والثاني: أن معناه: إني مُنيمك، من النوم، من قوله تعالى: «وهو الذي يتوفاكم بالليل» (الأنعام: ٦٠) لأن النوم أخو الموت. والثالث: إني مُميتك.

قال ابن عباس: توفّاه ثلاث ساعات من نهار، ثم أحياه، ورفعه إليه. والرابع: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، ومعناه: إني رافعك إليَّ ومطهِّرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء. والخامس: إني متوفيك عن حظوظ نفسك وشهواتك، لإن عيسى عليه السلام كان في الدنيا بهذه المثابة.

وقال ابن أبي بخيح: كان عيسى عليه السلام على طور سيناء، وعليه مدرعة شعر فهبت ريح، فهرول، فرفعه الله إليه.

محاورة الله تعالى لعيسى عليه السلام

قوله تعالى: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأُميّ إلهين من دون الله» (المائدة: ١١٦). قال السدّي: قال له ذلك عند رفعه إليه، لإن إذ للماضي. وقال غيره بقوله له يوم القيامة، وفائدة هذا السؤال، مع أنَّ الله عالم بأنه ما قال، أنَّ جماعة من النصارى ادّعوا أن عيسى عليه السلام أمرهم بعبادته، فأراد تكذيبهم فلفظ الآية استفهام، والمعنى توبيخ لمن ادعى عليه أنه قال ذلك. وقيل إنه أراد اعتراف عيسى بالعبودية ليظهر ذلُه وخضوعه، والإله لا يكون خاضعاً.

وقيل إنه أراد إظهار فصاحة عيسى عليه السلام، وأنّه مؤيد بروح القدس، لأنه أجاب بأحسن الأجوبة. فقوله: «سبحانك» ومعناه تقدَّست وتنزَّهت عن أن يقول مثلي هذا، فأنت المعبود وأنا العبد. قوله: «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق» معناه قد علمت أني لا ينبغي لي ذلك، فما قلت. قوله: «إن كنت قلته فقد عَلِمْتَهُ» لأنه علم أنه ما قال. قوله«تعلمُ مَا في نفسي ولا أعلمُ مَا في نفسك» لأنه مُطَّلع على سرِّه وضميره، وقد علم أنه ما قال.

«إنك أنت علّام الغيوب» (المائدة: ١١٦) لأنه إذا كان عالماً للغيب لم يخْفَ عليه شيء. قوله: «ما قُلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبُدُوا الله ربي وربكم وكنتُ عليهم شهيداً» لأنه أمرهم بعبادة الله، فقد اعترف بالعبودية، والعبد لا يكون إلهاً «وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم» لأنه لما كان فيهم ما ادعوا عليه ذلك. قوله: «فلما توفَّيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد» (المائدة: ١١٧) أي رفعتني وما زلت معترفاً لك بالألوهية إلى حين وفاتي. إنك تُشهد الأنبياء وتعلمهم وأنت مُطّلع على البواطن والظواهر، والشهيد لا يستتر عنه شيء. قال أبو روق: لما قال الله لعيسى ذلك ارتعدت مفاصله، وانفجرت من كل شعرة منه عينٌ من دم.

وقال مجاهد: بقي أربعين عاماً على وجهه بمنزلة الميت.

فإن قيل: فالنصارى لا تتخذ مريم إلهاً، فكيف قال إلهين من دون الله؟ فالجواب: أنهم لما قالوا لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً ألزمهم ذلك من حيث البعضية، فصاروا بمثابة من قاله.

ومعنى قوله توفيتني، يعني بالرفع إلى السماء، وقيل معناه غيبتني، وقيل معناه أمتّني عند انتهاء أجلي. ثم أدركته رقّة عليهم، فقال: «إن تُعذِّبهم فإنهم عبادُك» أي تُميتهم على الكفر، «وإن تغفر لهم» بتوبتهم «فإنك أنت العزيز الحكيم» (المائدة: ١١٨) في قضائك، فلا ينبغي لأحد أن يعترض عليك. قوله تعالى: «قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» وهذا خاص لعيسى عليه السلام. وقيل إنه على العموم في حق كل صادق.

نزول عيسى عليه السلام

أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه في المسند[1]، قال: وإنه نازل على أُمتي وخليفتي فيهم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع الخَلْق إلى الحُمرة والبياض سبط الشعر، كأنَّ شعره يقطر وإن لم يُصبه بلل. وفي رواية: خرج من ديماس بين ممصرتين، يدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، وليسلكن الرّوحاء حاجاً أو مُعتمراً، أو ملبّياً بهما جميعاً، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها، ويهلك مسيح الضلالة الدَّجال الكذّاب، ويقع في الأرض الأمن، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنُمورة مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان بالحيّات، ولا يضرّ بعضهم بعضاً.

ويلبث في الأرض أربعين سنة، وفي رواية أربعاً وعشرين حجّة. ثُم يتزوج ويُولد له، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون، وفي رواية: ويدفنوه في مسجدي أو حجرتي.

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا تزال طائفة من أُمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى بن مريم، فيقول

(١) صحيح البخاري، أنبياء ص ٤٨، وصحيح مسلم، فضائل ص ١٤٣ ـ ١٤٤، ومسند أحمد، ج ٢ ص ٤٦٣ ـ ٥٤١.

أميرهم: [تعال] صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أُمراء، تكرِمَة الله لهذه الأمة.

قال الشيخ أبو الفرج الجوزي رحمه الله: إذا نزل عيسى بن مريم اجتمع بصاحب الزمان، فيحضرون وقت الصلاة، فيقول صاحب الزمان له: تقدَّم، فيقول له عيسى عليه السلام: أنت أولى، فيتقدم صاحب الزمان. فلو تقدم عليه عيسى لكان ناسخاً لشرعنا. وقد قال نبيّنا ﷺ: لو كان عيسى وموسى حيَّين لما وسعهما إلا اتباعي.

فامتناع عيسى عليه السلام لئلا يتدنَّس وجه «لا نبي بعدي» بغبار الشبهة. والدليل على أن التبعية قائمة أنه ينكح على ما في الحديث، ويولد له، لأنه ضيف، والضيف يتبع أوامر المضيف: «تناكحوا تناسلوا» الحديث.

ولمسلم عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ من حديث في أمارات الساعة، وفيه: فبينا هو كذلك إذ بعث الله عيسى بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيَّه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحلُّ بكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ، فيقتله.

ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنّة. فبينا هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي، لا يُدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور.

وقد أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه عن جابر حديثاً طويلاً في الدجال، وفيه: ومعه جبال من خبز، ونهران، وشياطين تكلِّمُ الناسَ، ويأمر السماء فتمطر، ويقتل نفساً ثم يُحييها، لا يُسلَّط على غيرها من الناس. وقد حرَّم الله عليه مكة والمدينة، والملائكة قائمة على أبوابها. ويفرّ المسلمون إلى جبل الدخان بالشام، فيأتيهم، فيحصرهم فيه، ويشتدّ حصارهم، فينزل عيسى عليه السلام، فينادي وقت السحر: أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث، فينطلقون معه ويقولون: هذا رجل جنّي. فتُقام الصلاة، فيُقال لعيسى: تَقدَّم يا روح الله، فيقول: ليتقدَّم إمامكم فيصلي بكم، فإذا صلّوا صلاة الصبح خرجوا إليه. فحين يراه الكذّاب ينماث كما ينماث الملح في الماء، فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجرة والحجر لينادي: يا روح الله هذا يهودي، فلا يترك أحداً ممن كان يتبعه إلا قتله.

وقيل للحسين بن الفضيل: هل تجد نزول عيسى عليه السلام في القرآن؟ قال: نعم، قوله تعالى، «وكهلا» وهو لم يكتهل في الدنيا، فصار معناه: وكهلاً بعد نزوله.

وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: كيف تهلك أُمة أنا في أولها، والمهديّ من أهل بيتي في أوسطها، وعيسى في آخرها؟

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: نظرت في التوراة صفة رسول الله ﷺ وعيسى بن مريم وأنه يُدفن معه. وقال البخاري: هذا لا يصحُّ عندي. وفي إسناد هذا الحديث أبو مودود المدني لا يُتابع عليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُدفن عيسى عليه السلام عند باب حجرة النبيِّ ﷺ.

وفاة مريم عليها السلام

توفيت مريم عليها السلام بعد رفع عيسى عليه السلام بأربع سنين. وكان سنَّها يوم ماتت نيفاً وخمسين سنة. وقيل أقل من ذلك. ودُفنت بالحسمانية شرقي بيت المقدس عند قبر داوود عليه السلام. وقيل إنها توفيت قبل رفعه. فروي أن عيسى عليه السلام كان لا يأكل إلا من عزلها إذا لم يكن زمن اللقاط[1]. وكانا يصومان الدهر. فجاء ليلة عند الإفطار وهي نائمة قد ماتت، فناداها: يا أُمّاه، أفطر الصائمون، أمَا آن لكِ أن تفطري؟ فأوحى الله إليه أنها قد توفيت، فسلها تجبك، فقال: يا أُمّاه. فقالت: لبيك يا بني. فقال: كيف وجدت الموت؟

فقالت: يا بنيّ، والله لو وقعتْ عليَّ جبال الدنيا لكان أهونَ علي من الموت. والأول أشهر.

ولما رُفع عيسى عليه السلام انقطع الوحي بعده، ووقعت الفترة حتى بُعث نبيّنا ﷺ. وقال وهب: كان بين عيسى عليه السلام ونبيّنا ﷺ أربعة من الأنبياء، ثلاثة منهم ذُكروا في قوله تعالى: «إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزَّزنا بثالث» (يس: ١٤) والرابع خالد بن سنان العبسي.

ومذهب النصارى أنّ من هبوط آدم عليه السلام إلى رفع عيسى عليه السلام خمسة آلاف سنة وخمسمائة واثنتين وثلاثين سنة. والله أعلم بالصواب.

---

(١) زمن الحصاد.

تكريم الله لمريم عليها السلام
في القرآن الكريم والسُّنة النبوية

ومريم اسم أعجمي غير منصرف للعجمة والعلمية والتأنيث.

وقيل معناه بالعبراني: خادمة الله، وقيل: أَمَةُ الله. وقيل: المُحرَّرة. وشذَّ بعضهم فقال: عربي معناه مَرَتْ ورامتْ، أي حَلَبَتْ وطَلَبت، أي استخرجت طاعة الله وطلبت مرضاة الله. وقيل إشارة على أنها مرَّت على يمِّ الطَّاعة مرور السفينة والحوت باليّم.

ومن فضائلها: إتيان المَلَك بفاكهة الجنّة لأجلها، ونيلها في الشتاء فاكهة الصيف، وتكليم الملائكة لها، وإتيان جبريل إليها، وولادتها لعيسى روح الله وكلمته من غير مسِّ الرجال، وبيان براءتها على لسان الطفل الرضيع، وتساقط الرُّطب الجنيِّ عليها من النخل اليابس، وإجراء النهر السّريّ من تحت قدميها، وتفضيلها على نساء العالمين، وتطهيرها من الحيض والعيب والعصيان، وكفالة زكريا شيخ الأنبياء لها، وقبول الحق تعالى إيَّاها بالإنعام والإحسان، وتربيتها بفنون الإكرام والامتنان، وتكرار ذكرها بالمدح في نصّ القرآن.

ودعاها الله باثني عشر اسماً منبئة بفضلها أتمّ البيان، دعاها بالمحرّرة «ما في بطني مُحرّراً» (آل عمران: ٣٥)، ومُصطفاة «إن الله اصطفاك» (آل عمران: ٤٢)، ومطهَّرة «وطهَّرك» (آل عمران: ٤٢)، وقانتة «وكانت من القانتين» (التحريم: ١٢)، وساجدة وراكعة «واسُجدي واركعي»، ومُحصنة «التي أحصنت فرْجَها»، وآية «وجعلناها وابنها آية للعالمين» (الأنبياء: ٩١)، وأُمٌّ وصدّيقة «وأُمه صدِّيقة» (المائدة: ٧٥)، ووالدةٌ «وبَرّاً بوالدتي» (مريم: ٣٢)، ومَرْيم وبنت عمران «ومرْيَمَ ابنت عِمْرَان الَّتِي أَحْصَنتْ» (التحريم: آية ١٢).

وكذلك حينما يتحدث القرآن عن أُمهات المؤمنين نساء النبي عليه الصلاة والسلام لم يُفصح عن واحدة منهن باسمها الخاص. ولكن القرآن يذكر اسم العذراء الخاص «مريم» دائماً، حتى بلغ ذلك أربعة وثلاثين مرة منثورة في سورة «البقرة» و«آل عمران» و«النساء» و«المائدة» و«الأنبياء» و«المؤمنون». بل إن باسمها سورة خاصة هي سورة «مريم» والقصص عن مريم في هذه السورة يشغل تسع عشرة آية متوالية.

ونذكر بعض المواضع من القرآن: «وإني سميتُها مريم» (آل عمران: ٣٦)، «يا مريم أنّى لكِ هذا» (آل عمران: ٣٧)، «يا مريم إنّ الله اصطفاكِ وطهّركِ» (آل عمران: ٤٢)، «يا مريم اقنتي لربّك» (سورة آل عمران: آية ٤٣)، «يا مريم إنّ الله يبشّرُكِ» (آل عمران: ٤٥)، «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم» (الآيتان: ١١٠، ١١٦ سورة المائدة)، «ذلك عيسى بن مريم» (سورة مريم: ٣٤)، «واذكر في الكتاب مريم» (سورة مريم: ١٦)، «يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً» (مريم: ٢٧)، «وجعلنا ابن مريم وأُمّه آية» (سورة المؤمنون: الآية ٥٠).

كما نجد بجانب هذه التصريحات بالإسم الكريم إشارات أخرى للعذراء بأدوات الخطاب أو الغيبة أو الكتابات المادحة. كقول القرآن «فناداها من تحتها ألّا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّاً وهُزّي إليكِ بجذع النخلة تسّاقط عليك رُطَباً جنيّاً. فكُلي واشربي وقرّي عينا» (مريم: ٢٤، ٢٥)، وقوله عز وجل: «يا أُخت هارون ما كانَ أبوك امرأ سوء وما كانت أُمك بغيّا» (سورة مريم: ٢٦، ٢٨).

ونُجمل الحديث بقولنا إن القرآن - كتاب الله المُبين ودستور المسلمين - يرى في مريم أُم المسيح عليهما السلام آية في اصطفائها... آية في ميلادها... آية في اختلائها في الهيكل... آية في مولدها للمسيح... آية في طهارتها وبتوليتها... وآية في شخصيتها. كقول القرآن: «ومريم ابنت عمران الَّتي أحْصَنَتْ فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربِّها وكُتبه وكانت من القانتين» (التحريم: آية ١٢)، وقوله أيضاً: «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين» (الأنبياء: آية ٩١).

وبهذه الفضائل كلها استحقت مريم عليها السلام أن تكون كما أرادها الله سيدة نساء العالمين في الجنّة.. قال تعالى: «وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاكِ وطهّركِ واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران: الآية ٤٢).

«وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

وأنشد بعضهم:

توكل على الرحمن في كل حالة ... ولا تترك الخلّاق في كثرة الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهُزّي إليك الجذع تسّاقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها ... جنتهُ ولكن كلّ أمرٍ له سبب

الحديث الشريف

وأمّا ما يتصل بالسُّنة النبوية الشريفة فحديث روته أُم المؤمنين أُم سَلمَة وأخرجه صاحب تيسير الوصول إلى جامع الأُصول في حديث الرسول، وفيه تقول أُم سلمة رضي الله عنها: دعا رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها عام الفتح فناجاها فبكت، ثم حدّثها فضحكت، فلما توفي رسول الله ﷺ، سألتها أُم سلمة عن بكائها وضحكها. فقالت فاطمة رضي الله عنها: أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنّة إلا مريم ابنة عمران فَضَحِكْت.

وروى الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء أهل الجنّة بعد مريم فاطمة، وخديجة وامرأة فرعون».

الفصل الثالث

السيدة المؤمنة آسية بنت مزاحم

(إمرأة فرعون)، التي أحسنت فاختارت
جوار الله، فمنَّ عليها بالرضوان وأنعم
عليها بقصر في أعلى غُرف الجنان

«وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنَّة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين» (قرآن كريم: سورة التحريم آية ١١).

تقـديــم

روى عكرمة عن ابن عبـاس رضي الله عنهما، مـوقوفـاً عليه قـال: كانت آسيـة بنت مزاحم، زوجة فرعون مصر، من بني إسرائيل سبط موسى، وهي من بيت النبـوة وسليلة المجد، وقيل كانت ابنة عمه تزوجها بعد أخيه وذلك أوفق وقيل كانت عمته، واختُلف في اسم الفرعون فيزعمون أنه رمسيس الثاني وقيل ابنه «منفتاح».

وقـال وهب: فرعـون موسى من القبط عـاش أربعـمائـة سنـة وكـان من أخبث الفـراعنـة وذلـك لأن فـرعـون يـوسف لم يكن يؤذي بني إسرائيـل وكـان يُحسن إليهم ويكرمهم، وفرعون موسى عذَّبهم بأنواع العذاب. وقال الجوهري: فرعون مَلِك مصر من الفراعنة، وكل عاتٍ [مُتمرِّد] فرعون، والعُتاة الفراعنة، وهو ذو فرعنةٍ، أي دهاء ومكر، وقال ابن الجواليقي: والفرعنة مشتقة من فرعون.

واختلفوا في صفته، قال وهب: كان قصيـراً، ولحيته طـويلة. وقيل كـان طولـه قدر ذراع، وقيل كان طوالاً والحقيقة أنه لم يكن طويلاً بـائن الطول، ولا قصيـراً بائن القصر كما ادَّعى الرواة ولكنه كان متوسط الطول مثل عامَّة المصريين.

رؤيا فرعون ومولد موسى ورعاية آسية له

قال علماء السير كوهب بن منبه والكلبّي والسدّي وغيرهم قالوا[1]: رأى فـرعون في منامه كأن ناراً أقبلت من البيت المقدس فأحرقت بيوت مصر وقصر فـرعون والقبط فلم يبق منهم أحد، فهاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة، وأخبرهم بمـا رأى، فنظروا في علومهم وقالوا: يُولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك وهلاك قومك على يـده، وذكر صاحب التبصرة: أن الكهنة أخبروا فرعون وقالوا: يُولد مـولود في بني إسرائيـل يكون هلاكك على يده، ولم يذكر المنام وهو أصح، لأن مـوسى إنما وُلـد بمصر لا ببيت المقدس. فالنار التي أحرقت بيوت مصر إنما خرجت من مصر.

---

(١) تاريخ الطبري ج ١: ص ٤٤٦.

قالوا: فأمر فرعون بذبح كل مولود في بني إسرائيل، ووكّل الشُرَط مع القوابل كُلّما وُلد مولود ذبحوه، وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فقال رؤساء القبط لفرعون: قد أمرت بذبح الأبناء، وقد أسرع الموت في المشايخ، فإن دُمت على هذا لم يبق لنا من يخدمنا. فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فوُلِدَ هارون قبل موسى في السنة التي لم يُذبح فيها، ووُلد موسى في السنة التي يُذبح فيها، بعد أن ذُبح من بني إسرائيل سبعين ألفاً.

تقول الروايات أن أُم موسى، واسمها «يوحانت» من نسل لاوي بن يعقوب، حملت به ولم تظهر عليها علامات الحمل من كبر البطن، أو ما يُشير إلى أنها حامل. والقابلة التي ساعدتها في الولادة، كانت مُصاحبة لها وبينهما صداقة ومودة، وأنها عند ولادة موسى رأت نوراً بين عينيه، فتستّرت هي كذلك وعملت على حفظ الوليد.

وعند خروج القابلة من منزل أُم موسى، تهافتت عليها العيون، وجاء الشُرَط إليها مُتسائلين عن عمل القابلة عندها، فأخبرتهم أنها صديقتها أتت لزيارتها، فلما أبصرت بهم خافت عليه منهم، فألقته في التّنُور وهو يُسْجَر[1]، ورأوا أُم موسى ولم يتغير لها لون، ولم يكن عليها علامات الولادة. فلم يظهر لها لبن فصدّقوها حين قالت عن القابلة: «إنها مُصافية جاءتني زائرة».

فانصرفوا عنها وقد تذكرت وليدها، ولم تدْرِ في أي مكان وضعته، فسألت أُخته عنه، فسمعت بكاءه في التّنور ولم تمسسه نار، فأتت به ومكث في حضانتها زمناً، ولما اشتدَّ فرعون في طلب الأطفال وتقتيلهم خافت عليه منه، فألهمها الله أن صنعت تابوتاً من البرديّ ـ وقيل إنما صنعه رجل مؤمن من آل فرعون ـ فأوحى الله إلى أُم موسى أن أقذفيه في التابوت ثم أقذفيه في اليمِّ ـ يعني النيل ـ ففعلت ذلك بعد أن أرضعته.

فسار التابوت في الماء، وكانت أُم موسى قد رَفَتْ التابوت، ولفَّت موسى في القطن، فساقه القَدَر إلى نهر يأخذ من النيل إلى دار فرعون، ووافق جلوس فرعون في ذلك الوقت على البِرْكة، ومعه آسية بنت مُزاحم، فدخل التابوت إلى البِرْكة، فقال فرعون، للخدم والجواري: أخرجوه، فأخرجوه، فاجتهد فرعون في فتحه. فلم يكن ذلك سهلاً ميسوراً، ثم أقبلت امرأته آسية، فعالجته ففتحته، فرأت نوراً بين عيني الطفل، فبهرها حُسْنه، ووقع في قلبها حُبه والعطف عليه، فلما رأى فرعون الطفل هو

---

(١) فيه النار.

ووزيره هامان، لحظا عليه أنه كنعاني الوجه، إسرائيلي السحنة، فهمَّ بقتله، فقالت له آسية إمرأته: «قرَّت عين لي ولك لا تقتلوه» (القصص: آية ٩)، إني ألمحُ فيه مخايل النجابة واليُمن والبَرَكة. وأرى أنه سيكون لنا سلوى وقُرَّة عين قال الطبري: ذُكر أن آسية لمَّا قالت هذا القول لفرعون قال لها: أمَّا لك فنعم، وأما لي فليس بقرَّة عين، وقال ابن عباس: لو قال قُرَّة عين لي لهداه الله به ولآمن ولكنه أبى. وقد خاطبته آسية بما يُناسبه من التعظيم كما يُخاطب الملوك، فخاطبته بلفظ الجمع ليساعدها فيما تُريد «لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون» (القصص: آية ٩) واستطردت السيدة آسية في مُخاطبة زوجها فرعون وهي تتلطّف له وتسترضيه قائلة له: عسى أن ينفعنا في الكبر، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا. قال المُفسِّرون: وكانت لا تلد، وقيل: كانت لا تلد إلا البنات فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها. قال تعالى: «وهم لا يشعرون» أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته على يديه وبسببه.

وقيل لمّا فُتح التابوت رآه فرعون، فقال: عبرانيّ، كيف أخطأه الذبح وأمر السنة؟

قالت آسية: هذا أكبر من سنة، فدَعه عسى أن يكون «قُرَّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا» وكان لا يولد لفرعون إلا البنات، وأحبَّه حُبَّاً شديداً بحيث لم يصبر عنه لحظة. قال ابن عباس فذلك قوله تعالى: «وألقيت عليك محبة مني» (طه: ٣٩) قال قتادة: كان في عينيه ملاحة ما رآه أحداً إلاّ وأحبه.

وقال الضحاك: لما ألقته أُمه في النار خافت، فلما ألقته في اليم ندمت وجزعت، قوله تعالى: «وأصبح فؤاد أُمِّ موسى فارغاً» (القصص: ١٠) أي خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى شفقة عليه. وقال ابن عباس جاءها إبليس فقال: كرهت أن يقتله فرعون فيكون لك أجره وثوابه، وتوليت أنت قتله فألقيته في اليمّ؟! فخافت، فربط الله على قلبها، وقالت لأخته: «قُصِّيه أي اتبعي آثاره، فدخلت دار فرعون فوجدته عند آسية وقد جمعت له المراضع فلم يقبل ثدياً، فقالت مريم[1]: هل أدلكم على من يكفله أي من يرضعه ويضمه إليه؟

فقالت آسية: نعم، فأرسلت إلى أُمِّه فجاءت فأعطته ثديها فقَبِله وشرب ونام، فذلك قوله تعالى: «فرجعناك إلى أُمِّكَ» (طه: ٤٠) وفي مصحف أبيّ بن كعب:

---

(١) أخت موسى.

فرددناك إلى أُمِّكَ «كي تقرَّ عينها» (طه: ٤٠) بلقائك. فلما تمَّ رضاعُه ردَّته إلى دار فرعون، فأخذه يوماً في حِجْره، فمدَّ بلحيته (عبث بها).

فقال فرعون: عليَّ بالذابح، فقالت آسية: إنَّما هو صبيٌّ لا عقل له، وأحضرت ياقوتاً وجمْراً، فأخذ جمْرة فوضعها في فِيه، فاحترق لسانه، فذلك قوله تعالى «واحلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي» (طه: ٢٧ ـ ٢٨). فإن قيل فأنَّى اشتبه بالنار؟ يوم التنور أُلقي فيها فلم تحرق لسانه؟ فالجواب: أنه قال لفرعون يوماً يا «بابا» فعوقب لسانه ولم تُعاقب يده لأنها مدَّت بلحية فرعون، ولهذا ظهرت المعجزة في اليد دون اللسان، قال تعالى: «تخرج بيضاء من غير سوء» (طه: ٢٢).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: ذبح فرعون في طلب موسى تسعين ألفاً من بني إسرائيل، وكانت القابلة التي وكلها بأمّ موسى مصافية لها، فلما ولد موسى ووقع على الأرض لاح نورٌ بين عينيه، فهالها وهابته، فقالت لأمّه: احفظي ولدك، فهذا هو المطلوب الذي أُخْبرنا بأنه عدّونا لأنها كانت قابلته، وهجم عليها الشرط، والتنور يُسْجَر فلفته في خرقةٍ، وألقته فيه، وغشي على أُمه من الخوف، وخرج الشرَط فقالت أمه لأخته ـ واسمها مريم، وقيل كانت له أُخت أخرى يقال لها كلثم[1] ـ أين الصبي؟ فقالت: لا أعلم، فسمعت بكاءَه من التّنور، فألهمها الله أن تصنع له تابوتاً، فاشترته من نجار، فقال لها: ما الذي تصنعين به؟ فقالت: أضع فيه ابناً أخاف عليه كيد فرعون، فمضى النجار ليغمز عليها فأخرسه الله، فجعل يُشير بيده فلم يفهموا إشارته، ثم آمن بعد ذلك بموسى. فألقته في اليمِّ، وكانت لفرعون ابنة برصاء قد أعيا الأطباء دواؤها، وقالت الكهنة: لا تبرأ إلا من قبل إنسان يوجد في البحر عند شروق الشمس، في وقت كذا وكذا، فاتفق جلوس فرعون في تلك الساعة على جانب النيل، وعنده ابنته البرصاء وآسية، وإذا بالتابوت يضربه الموج وقد تعلّق بالشجر، فابتدروه بالسفن فأخذوه، فعالجوه فلم يقدروا على فتحه، ودَنت منه آسية ففتحته، فلاَحَ نور عظيم من بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه وهو يمصُّ فيدرُّ لبناً، وأخذت ابنة فرعون من ريقه فلطّخت به برصها فبرئت من وقتها، فقبَّلته وضمَّته إلى صدرها وفرعون ينظر، فقال الغواة من قومه: إنَّا نظن أن هذا المولود الذي يزيل ملكك، وإنهم خافوا عليه منك فألقوه في البحر، فاقتله، فهمَّ بقتله

(١) وفي لفظ (كلثوم).

فمنعته آسية وقالت: «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»، فوهبه لها، وقال: أما أنا فلا حاجة لي فيه. قال ابن عباس: لو قال فرعون مثل ما قالت آسية، «قُرَّة عين لي» لهداه الله كما هداها، ولكن أحبَّ الله أن يُجري فيه سابق علمه.

وقد سمَّته آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون «موسى» واللفظ مكوَّن من جزءَين «مو» وهو الماء و«شا» وهو الشجر بالقبطية لأنهم وجدوا موسى بين الماء والشجر. وذكر الرواة أن الجواري كُن يغتسلن بالبِرْكة وكان فرعون يجلس إلى جوار البِرْكة للنُزهة والترويح عن النفس بعد يوم حافل قضاه في مملكته وكانت تجلس إلى جواره جميلة الجميلات زوجته وابنة عمه آسية بنت مُزاحم ومعهم ابنة برصاء قد أعيا الأطباء دواؤها، ويقول المُفسِّرون إن الجواري التقطن التابوت من البحر وكان مُغْلقاً حسبوا أن به كنزاً، فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدي آسية إمرأة فرعون، فعالجته وفتحته، وهالها أن رأت طفلاً جميلاً يلمع من بين عينيه نور عظيم فأحبته وتمنّته ابناً لها؛ ولم يكن لها ذريّة من الذكور فاستوهبته من فرعون فوهبه لها. عندئذ قالت آسية للذبّاحين: انصرفوا، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل.

واستجلبت له آسية المراضع، فنفر منها جميعاً ولم يقبل ثدياً، مما جعلها حَيْرى في أمره.

لقد طال انتظار آسية للولد، وها هي قد كبرت سنَّها ولم يكن لها ولد ذكر يرث مُلْكَ فرعون على البلاد والعباد!

وكانت آسية في قصرها مع فرعون الذي أحبّها وأحبته؛ تعيش في رخاء، وتحيا حياة الترف والنعيم؛ فلم يكن يُكدِّر صفوها إلاَّ أن يكون لها ولد ذكر تقرُّ به عينها وتؤنس به وحدتها، فلما جاء الوليد وهو موسى وكان جميلاً بهيَّ الطَّلعة تعلَّق قلبها به وأَحبَّته حُبَّ الأُم الرؤوم لولدها، وضاعف من حُبها له أن ابنتها البرصاء أخذت من ريقه فمسحت به برصها فشفيت من وقتها، فضمته إلى صدرها وقبّلته.

لقد ابتسم القدر لآسية فوهبها ذلك الغلام الجميل بعد طول حرمان؛ وها هو الوليد ـ على غير عادة الأطفال ـ يرفض ثدي المُرضعات اللاتي تقدَّمن لإرضاعه، فهل تتركه يقضي نحبه؟ نعم لقد خافت عليه آسية من الموت وأضاف عليها موقف الوليد ورفضه وإباؤه مزيداً من الحيرة واللهفة!!

وبقلب الأم الوالهة بعثت المُنَادين إلى السوق لكي تستجلب مزيداً من المُرضعات لوليدها الذي أنعم الله به عليها.

وكـانت أُخت موسى ـ كلثم ـ كـما جاء في روايـة ابن عباس تتبـع أثره، فـرأت القوم مجتمعين وإنهم ليجَـدُّون في طلب من يكفل مـوسى ويقوم عـلى رعايتـه وهو ابن ملك.

هُنا تقدمت أخته من القوم وقالت كما قصّ علينا القرآن «هل أدُلُّكم على أهـلِ بيْت يكفلونه لكم وهم له ناصحون» (القصص: ١٢).

قال ابن عباس: لما قالت كلثم أُخت موسى ذلك قالوا لها: ما يُدريك بِنُصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبةً في صِهْرَ الملك ورجاء منفعته، فأطلقوها، وذهبوا معهـا إلى منزلهم فأخذته أُمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخـذ يمتصه ويـرتضعه ففـرحوا بـذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى آسية يُعلمها بذلك، فاستـدعتها إلى منـزلها وعـرضت عليها أن تكون عندها وأن تُحسن إليها فأبت عليها وقالت: إنَّ لي بعلاً وأولاداً ولست أقدر على هـذا، إلاَّ أن تُرسليـه معي فأرسلتـه معها ورتبت لهـا رواتب وأجْزت عليهـا النفقات والكساوي والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحْلِها وقد جمع الله شمله بشملها.

فذلك قوله تعالى: «فرددناه إلى أُمِّه كي تقرَّ عينها ولا تحـزن» (القصص: ١٣). وفي الحديث الشريف: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعتـه الخير، كمثـل أُم موسى تُرضع ولدها وتأخذ أجرها».

فلما ترعرع قالت آسية لأُم موسى: أُريد أن أرى ابني موسى، فوعـدتها يـوماً أن تراه فيه؛ فقالت آسية لحواضنها وجواريها وقهارمتها[1]: لا يبقين أحد منكم إلاَّ استقبل ابني بهَدِيَّة وكرامة، لِيُرَى ذلك، وأنا باعثة أمينة تُحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايـا والتحف والإكراميـات تستقبله من حين خـرج من بيت أُمه إلى أن دخـل قصر آسية امرأة فرعون، فلما دخل عليها بجَّلته وأكرمته وفرحت به وأعجبها مـا رأت من حُسْن أثرها عليه، وامتدَّ أثر حبها للوليد إلى فرعون فأحبه واتخذه ولـداً فدُعي ابن فرعون.

وذات يوم، بينما هي ترقِّصه وتلعب به إذ ناولته فرعون وقالت: خذه «قُرَّة عـين لي ولك» قال فرعون: هو قرَّة عين لك وليس لي [2] وفي الحديث الشريف قال رسـول الله ﷺ: «والذي يُحلف به لو أقَرَّ فرعون أن يكون له قُرَّة عين كـما أقرّت بـه لهداه الله به كما هدى به إمرأته ولكن الله حرمه من ذلك».

---

(١) الشرطة من النساء الخاصة بآسية إمرأة فرعون.

(٢) تاريخ الملوك للطبري قصة موسى عليه السلام.

فلما تناوله فرعون وضمّه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها!

فقال أحد الكهنة: إنّا نظن أن هذا هو الذي سيصرعك ويعلوك.

فقال فرعون: عليّ بالذبّاحين.

فقالت آسية: ما بَدَا لك من هذا الصبي الذي وهبته لي؟

قال: ألا ترين! وأشار إلى أحد الكهنة؛ يزعم أنه سيصرعني ويعلوني!

وهنا تظهر آسية وقد استبدّت بها عاطفة الأمومة نحو ولدها موسى، وبلغ منها الإشفاق والخوف مُنتهاه. فاتجهت بقلبها إلى زوجها فرعون، تستلطفه وتسترضيه، وقد عرفت مكانها من قلبه وهي الزوجة المُخلصة البارّة الوفية التي تعرف قدر زوجها ومكانته فخاطبته مخاطبة الملوك بلغة الجمع، وتقدم النُصح على استحياء بأسلوب الرجاء، فتخرج الكلمات من فيها مُمتلئة رقّة وعذوبة وحناناً، فتصادف من قلب زوجها موقع الظمآن من الماء، فتلقى قبولاً، ويستمع لكلامها ويرفض نصيحة الكهنة.

قالت آسية لفرعون: «لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»، إنما هو صبي لا يعقل؛ وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر أحلى مني، أنا أضع له حُليّاً من الياقوت، وأضع له جمراً، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي. فأتت بجمرتين ولؤلؤتين، فجاء جبريل عليه السلام فطرح في يده جمرة فوضعها موسى في فيه فأحرق لسانه، فذلك قوله تعالى: «وأحلل عُقدة من لساني يفقهوا قولي». وهكذا نشأ موسى في عزّ ومنعَة في كنف السيدة الكريمة آسية بنت مُزاحم، ولحظته بعين عنايتها ورعايتها، فكان موسى في قصر فرعون بمثابة ابن الملك، وفوق هذا أُوتي الرُّشد في الرأي والسداد في التصرف، فكان حكيماً في أفعاله، عليماً في آرائه.

وهكذا صار موسى وهو في سن الرشد كاملاً، نقياً، عادلاً، محظوظاً ذا جاه وعز ومنعة، وقد عُرِفَ عنه ذلك، ولم يُظهر ميله أو تعاطفه مع بني جلدته مع ظلمهم، لئلا يُتهم في شيء من ذلك، عند فرعون ومن في مصر من القبط، الذين اتخذوا أهله وعشيرته من بني إسرائيل عبيداً لهم يُسخّرونهم كيف يشاءون.

خروج موسى من مصر
وعودته برسالة ربِّه إلى فرعون

وكبر موسى فكـان يركب مـراكب فرعـون، ويلبس مثل ملبس فـرعون، وكـان يُدعى ابن فرعون.

وذات يوم، خرج فرعون، ولم يخرج معه موسى كعادته فقد كـان غائبـاً في ذلك اليوم ليقضي حاجة له، فلما جاء موسى قيل له إن فرعون والدك خرج، فركب في أثره فأدركته القيلولة بمدينة منف وقت اشتداد الحرّ وانتصاف النهـار، فدخـل المدينـة. قال تعالى: «ودخل المـدينة عـلى حين غفلة من أهلهـا فوجـد فيها رجلين يقتتـلان هذا من شيعته وهذا من عدّوه» قال السدّي: وقيل الذي من شيعته هو السامـري، والذي من عدوه طبّاخ فرعون واسمه فلينوث أو فاتون[1].

وكـان القبطي قـد أخذ الإسرائيـلي ليحمل الحـطب إلى مطبـخ فرعـون، وكان الحمل ثقيلاً، فامتنع الإسرائيلي عن السُخرة، فـاقتتلا، وتصـادف أن كان مـوسى مارّاً فاستغاث به الإسرائيلي، فأخبره القبطي أن الحطب لمطبخ أبيه فرعـون، فقال مـوسى: دَعْه أي اتركه، فقال الـطبّاخ: لقـد هممت أن أحمله على ظهـرك «فوكـزه موسى فقضى عليه»، أي مات ولم يتعمد موسى قتله، والوكز بأطراف الأصـابع، ثم إن مـوسى ندم على قتله، فدفنه في الرمل وقال: لم أؤمـر بذلـك، فإنـه «من عمل الشيـطان إنه عـدو مُضِل مبين» (القصص: ١٥) «فأصبح في المدينة خائفاً يـترقب» أي ينتظر الأخبـار من ناحية القبطي، أن يؤخذ به فيُقتل «فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه» وقد لزمـه قبطي آخر يُريد أن يُسخِّره، فاستغاث به الإسرائيـلي على الفـرعوني، فصـادف موسى وقد ندم على قتل القبطي بالأمس، فقـال للإسرائيـلي «إنك لغـوي مبين» (القصص: ١٨) ومعناه ما كفاني أن قتلت بالأمس نفسـاً بسببك حتى أقتـل آخر، ثم مـدّ يده إلى الفرعوني وظن الإسرائيلي أنه يريده، فقال: «يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسـاً بالأمس» (القصص: ١٩) فلما سمع الفرعوني مقـالة الإسرائيـلي، علم أن موسى قتـل القبطي، فأخـبر فرعـون، فأرسـل الذبّـاحين وأمـرهم بقتل مـوسى. فجاءه رجـل من شيعته من أقصى المدينة فقال: «يا موسى إن الملأ يأتمرون بك» أي يتشاورون في قتلك

(١) عرائس المجالس.

«فـاخرج» من هـذه المدينـة «إني لك من النـاصحين» (القصص: ٢٠) «فخـرج منها» موسى «خائفاً يترّقب» أي ينتظر الطلب «قال ربِّ نجني من القوم الظالمين» (القصص: ٢١).

وسار موسى في الصحـراء قاصـداً مَدْين، وبينهـا وبين مصر عشـرةَ أميال. قـال وهب: ولم يكن معـه زاد ولا درهم ولا دينار، ولا حـذاء، وكان يـأكـل ورق الشجـر ويمشي حافياً حتى ورد ماء مدين.

وقـال ابن عباس: لقـد قـال مـوسى «ربِّ إني لمـا أنـزلت إليّ من خـير فقـير». وجلس إلى الظل وهو صفوة الله في خلقه، وإن بطنه قد لصق بظهره من الجوع، وإن خُضرة البقل لتُرى من داخـل جوفـه، وإنه لأحـوج الناس إلى شق تمـرة، وإنه لأكـرم خلق الله وما أجد على وجه الأرض أعزّ منه عند الله. قال تعالى: «ولّما ورد مـاء مَدْين وجد عليه أُمّة من الناس يسـقون، أي جماعة من القوم يسقون أغنامهم، «ووجـد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكـما قالتـا لا نسقي حتى يُصدِر الـرِعاءُ وأبـونا شيـخ كبير» (القصص: ٢٢ ـ٢٣).

وجـد موسى أن المـرأتين تذودان غنمهما عن غنم القـوم أي تمنعان أغنـامهـما أو مواشيهما عن الاختلاط بأغنام الناس. وقيـل تحبسان أغنـامهما لضعفهـما، فإذا شربت أغنام الناس، سقيا أغنامهما. فرَقَّ لهما قلب موسى ولانت عـاطفته، رغم مـا عليه من التعب والإعياء.

فـاقتلع صخرة من على رأس بئـر أخرى بقـرب تلك البئـر لا يـطيق رفعهـا إلاّ جماعة من الرجال، فسقى لهما «ثم تولى إلى الـظلِّ» أي إلى ظل شجـرة «وقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير» (القصص: ٢٤)، والخـير: الطعـام، وهو في القـرآن على وجوه، وقال الفراء: الخير اسم لكل ممدوح والشر اسم لك مذموم.

سقى لهما دون ابتغاء أجر، أو طلب مساعدة، بل سقى لله وفي الله، ولم يطلب الأجر إلا من الله.

فلما رجعتا إلى أبيهما مسرعتين على غير عادتهما، سألهما عن السبب، قالتا وجـدنا رجلاً صالحاً رَحِمَنا فسقى لنا، وكانت إحدى الفتاتـين قد سمعت منـاجاة مـوسى حين آوى إلى الظل «رب إنّي لما أنزلت إليَّ من خير فقير». فقال لهـا أبُوهـا: اذهبي فادعيـه

لي، فأتته «تمشي على استحياء» وقد سترت وجهها بيديها، فقالت: «إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا» (القصص: ٢٥)، فتبعها. قال مطرف بن عبد الله: لو كان عند نبّي الله شيء ما تبعها، ولكن حمله على ذلك الجهد.

وسُئل سفيان بن عُيينة فقيل له: الرجلُ يعمل العمل لله: يُؤَذِن، أو يؤُمّ، أو يُعين أخاه فيُعطى الشيء فهل يقبله أم لا؟

قال: نعم يقبله، ألا ترى أن موسى عليه السلام لم يعمل للعمالة، وإن عمل لله تعالى فعرض له رزق من الله فقبله، ثم قرأ «إن أبي يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيت».

وقال وهب: فمشى وهي بين يديه، فهبت الريح فعطفت ثوبها على ردفها، فقال لها: امشي خلفي فإننا لا ننظر إلى أعجاز النساء.

«فلما جاءه» يعني شعيباً، والد الفتاتين، وهو شيخ الأنبياء وأكبرهم، «وقصَّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين» (القصص: ٢٥) يعني فرعون وقومه لأنه لا سلطان له على أرضنا.

«قالت إحداهما يا أبت استأجره» ليرعى أغنامنا، «إن خير من استأجرت القويّ الأمين» (القصص: ٢٦) سألها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: رفع صخرةً لا يرفعها إلا جماعة من الرجال، فهو قويّ، وأما أمانته فإن الريح هبّت بثوبي، فقال لي: كوني خلفي.

فحينئذ قال الأب لموسى: نحن أحرار في بلادنا، نسير بالعدل، و«إنّي أُريد أن أُنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أُريد أن أشقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين» (القصص: ٢٧) أي أني أُريد أن أُزوجك إحدى بنتي هاتين الصغرى أو الكبرى بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي، فإن أكملتها عشراً فذلك تفضّل منك وليس بواجب عليك وما أُريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر وستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لينّ الجانب، وفيّاً بالعهد. قال القرطبي: في الآية عرض الولي ابنته على الرجل، وهذه سُنّة قائمة، عرض شعيب ابنته على موسى، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ فمن الحُسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح. فرضي موسى وقال: «ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل» (القصص: ٢٨). وفي

حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: تزوج الصُغرى منهما، وهي التي قالت يا أبت استأجره.

وتزوج موسى فتاته، وهي الصُغرى، التي أقبلت عليه فدعته، وسارت معه حتى أوصلته إلى أبيها، وهي التي امتدحته وعرفت خلاله من طريقته معها، فوصفته لأبيها بالقوي الأمين، وهي التي طلبت إلى أبيها استئجاره.

فلما أتمّ موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس: قضى أتمَّ الأجلين وأوفاهما، عشر سنين، وسُئل النبي ﷺ: أي الأجلين قضى موسى، قال: «أبعدهما وأطيبهما وأوفاهما وأتمهما».

واختلف المفسِّرون في والد الفتاتين. وأرجح الأقوال، أنه شُعيب النبي الذي أُرسل إلى أهل مدْين.

وقال مجاهد: أقام موسى بعد فراغ الأجل عشر سنين أخرى، فكمل عشرين سنة، وعامة العلماء على أنه لما قضى الأجل سار بأهله كما أخبر الله تعالى.

فلما قضى موسى الأجل، أمر زوجته أن تُخبر أباها، ليأذن لهما في السفر، وأن تسأله أن يعطيهما من غنمه ما يعيشون به وكانت غنمه سوداء حسناء، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب لون[1] ممن وُلد في ذلك العام. وأما عصاه فهي التي أعطاها إيّاه شعيب عليه السلام ليدرأ بها عن غنمه السِباع.

هنالك سار موسى بأهله وغنمه، فسلك بهم في ليلة مظلمة شديدة البرد، وكانت امرأته حاملاً، فأخذ الطلق زوجته، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك. قال ابن عباس: أمر الله تعالى النيران في تلك الليلة أن تخمد فلا تظهر في الأرض نار.

وعندها آنس من جانب الطور ناراً تضيء له على بُعد، فقال لأهله «امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار» (القصص: ٢٩) جذوة: أي شعلة، «أو أجد على النار هدى» (طه: ١٠). لأنه كان قد ضلّ الطريق، فعلم أن النار لا تخلو من موقد «لعلكم تصطلون» (القصص: ٢٩) أي تستعيذون من البرد، وكانت ليلة الجمعة.

ذهب موسى إلى مكان النار، والتي وعد أهله أن يأتيهم بقبس منها، أو يجد

---

(١) قالب لون: يحتوي على ألوان (ملوّنة): ابن كثير.

عليها هدى، فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة، لا تزداد النار فيها يرى إلا عظماً وتضرّماً، ولا تزداد الشجرة على شدة الحرق إلا خضرةً وحُسناً، فوقف ينظر لا يدري [على] ما يصنع أمرها، إلا أنه ظن أنها شجرة تحترق، فوقف وهو يطمع إن يسقط منها شيء فيقتبسه. قال مجاهد: وسمع تسبيح الملائكة فخاف خوفاً عظيماً، قال وهب: فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها، فمالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر عنها ثم عاد، فلم يزل كذلك، فما كان بأسرع أو بأوشك من خمودها، فتعجّب وقال: إن لهذه النار لشأناً. فوقف متحيراً، فإذا بخُضرتها قد صارت نوراً، عموداً ما بين السماء والأرض، فاشتد خوفه وكاد يخالط في عقله من شدة الخوف.

وقال مجاهد: صارت عموداً من نور له شعاع مثل شعاع الشمس تكلُّ دونه الأبصار. فعند ذلك خاف ووضع يديه علي عينيه ولصق بالأرض، فسمع حسّاً وشيئاً لم يسمع السامعون مثله.

فلما اشتدّ كربه وكاد أن يذهب عقله، فنودي من الشجرة يا موسى، فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه، فقال: لبيك، أسمع صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟

قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع موسى ذلك علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تعالى، فأيقن به فقال: كذلك أنت إلهي، أكلامك أسمع أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أُكلِّمك. وقال السدي: فذلك معنى قوله «فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن» أي من جانبه «في البقعة المباركة» أي المقدسة «من الشجرة». قال ابن مسعود: كانت الشجرة مثمرة خضراء ترفّ وقال قتادة: ناداه «يا موسى إني أنا الله ربُّ العالمين» (القصص: ٣٠) وقال ابن عباس في قوله تعالى «وقرّبناه نجيّا» (مريم: ٥٢) أنه أُدني حتى سمع صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، وضرب الله على قلبه صفائح النور، ولولا ذلك لما أطاق سماع كلام الله تعالى.

فقال الله تعالى: أدن مني، فجمع موسى يديه في العصا، ثم تحامل حتى استقلَّ قائماً، وأُرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب، حتى وقف بمنزلة قريباً من الشجرة، فقال له الربّ تعالى: «وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي أتَوَكأ عليها وأهشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أُخرى» (طه: ١٧ ـ ١٨). قال مجاهد: ومعنى أتوكأ عليها: أي اعتمد إذا عييت من المشي،

وأهش: أخبط بها الشجر ليتناثر الورق فتأكل منه الغنم، والمآرب: الحاجات.

وقال ابن عباس: كان له فيها ألف حاجة، منها أنه كان يحمل عليها زاده وسقاءه، وإذا خاف حدّثته وآنسته، وإذا جاع أو عطش ضرب بها الأرض فيظهر الطعام والشراب ويحارب بها العدو، وتدفع عنه الوحوش والهوام، وإذا اشتهى ثمرة غرزها في الأرض وصارت غصناً وأورقت وأثمرت، إلى غير ذلك. والصحيح أنها كانت من آس الجنّة.

فإن قيل: فقد علم الله حال العصا، فلم كان أول كلامه له: وما تلك بيمينك؟ فالجواب: إن هذا على وجه المباسطة له، لأنه لما رأى النار، وسمع تسبيح الملائكة وشاهد ما حكينا، خاف وصار كل عضو منه على حدة، فباسطه الله تعالى بذلك، ليثبّت جنانه فيصلح حينئذ لحمل الرسالة إلى فرعون.

«قال ألقها يا موسى» (طه: ١٩) فألقاها على وجه الأرض ثم حانت[1] منه نظرة فإذا هي بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدبُّ كأنه يلتمس شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة فيقلبها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيقتلعها ويبتلعها، عيناه توقدان ناراً، وله فم واسع فيه أضراس وأنياب لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولّى مُدبراً، فذهب حتى أمعن في البريّة، ثم ذكر ربه، فوقف استحياءً منه، فنودي يا موسى ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف، فقال الحق تبارك وتعالى: «خُذْها ولا تخفْ سنُعيدها سيرتها الأولى» (طه: ٢١) وعلى موسى يومئذ مدرعة صوف، قد خلّها بخلال من عيدان، فأثنى طرف مدرعته على يده ليأخذها.

فقال له ملك: أرأيت يا موسى، لو أذن الله لما تحاذر، أكانت المدرعة تُغني عنك شيئاً؟

قال: لا، ولكني ضعيف، ومن ضعف خُلقت، فكشف عن يده ووضعها في فم الحيّة حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض عليها فإذا هي عصاه التي عَهِدها.

فإن قيل: فلم خاف موسى من العصا ولم يخف ابراهيم من النار؟ فالجواب: إن تحويل العصا من فعل الله تعالى، وإيقاد النار من فعل الخلق، وقيل خاف موسى أن تلك الحيّة التي أُخرج آدم من الجنّة بسببها، أو من جنسها، فلهذا خاف، والسعيد

(١) تفسير ابن كثير.

من وُعظ بغيره. وقيل لما أضافها إلى نفسه «هي عصاي» أراه المولى جلّ وعلا أن من اتكل على غيره تعقّبه الفرار.

ويسمع النداء «إني أنا ربك فاخلع نعليك إنَّك بالوادي المقدّس طوى»، (طه: ١٢). أمره بإلقاء نعليه لتنال قدماه من بركة تلك الأرض، لأنها قُدِّست بالكلام وقال الحسن: إنه علَّمه التواضع، ألا ترى أن من طاف بالبيت فإنه يخلع نعليه تواضعاً، طوى: أي مطهر، أي فإنك بالوادي المطهرّ المبارك المُسمّى طوى «وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى» (طه: ١٣) أي اصطفيتك للنبوّة فاستمع لما أوحيه إليك، قال الرازي: فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني» أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فافردني بالعبادة والتوحيد، وهذه هي الوحدانية أول درجات الإيمان، وأصل دوحته «وأقم الصلاة لذكري» (طه: ١٤) أي أقم الصلاة لتذكرني فيها قال مجاهد: إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار. وقال الصاوي: خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في جملة العبادات لعظم شأنها، واحتوائها على الذكر، وشغل القلب واللسان والجوارح، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد.

«إن الساعة آتية أكاد أُخفيها» أي إن الساعة قادمة وحاصلة لا مُحالة، أكاد أُخفيها عن نفسي فكيف أُطلعكم عليها؟ قال المبرِّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: كتمته حتى من نفسي أي لم أُطلع عليه أحداً.

«لتجزى كل نفس بما تسعى» (طه: ١٥) أي لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر.

قال المفسرون: والحكمة من إخفائها. وإخفاء وقت الموت، أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون من العقاب، ولكن الله عمَّى الأمر، ليظلَّ الناس على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت.

وقد ثبَّت الله فؤاد موسى، بعد أن أراه آية العصا، قال تعالى: «إنك من الآمنين»، ثم أيده الله بآية أُخرى، ودليل آخر، ومعجزة على غير العادة: «واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أُخرى. لنُريك من آياتنا الكبرى» (طه: ٢٣).

وفي آية: «اسْلُك يَدَكَ في جيبك تخرج بيضاءَ من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون ومَلَائه إنهم كانوا قوماً فاسقين» (القصص: ٣٢).

فأخرج يده من جيبه، بيضاء ولها شعاع كالشمس، فلما أدخلها في جيبه ثانية، عادت إلى حالتها الأولى.

قال الربيع بن أنس: أمره الله أن يضع يده على صدره ليذهبَ عنه الرعب عند معاينة الحيَّة.

إلى هنا ثبت فؤاد موسى، وعرفَ سر آيات الرسالة؛ فعصاه آية، ويده آية، وهي سبيل تصديقه لدى من يكون له رسولاً، وهو فرعون وملأه إنهم كانوا قوماً فاسقين.

المواجهة في قصر فرعون

حين دنت ساعة المواجهة بينه وبين فرعون طلب موسى من المولى جل وعز، أن يشد عضده بأخيه هارون ليكون له وزير صدق، يعاونه في مواجهة فرعون الجبار، فكان له ما أراد.

«قال رب اشرح لي صدري. ويسِّر لي أمري. واحْلل عقدةً من لساني. يفقَهُوا قولي. واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشرِكْهُ في أمْري. كي نسبِّحك كثيراً. ونذكرك كثيراً. إنك كنت بنا بصيراً. قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى» (طه: من ٢٥ ـ ٣٦).

قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلاً.

وقال ابن عباس: لما أمره الله بالرسالة قال: «إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون» (القصص: ٣٣) «وأخي هارون هو أفصحُ مني لساناً» وأحسن بياناً «فأَرسلهُ معي ردءاً» (القصص: ٣٤) أي معيناً فقال الله له «سنشدُّ عَضُدَك بأخيكَ» أي نقويك ونعينك، وكان هارون يومئذ بمصر، «ونجعل لكما سلطاناً» أي قوة وحجة وبرهاناً «فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون» (القصص: ٣٥).

وقال مقاتل: وقوله تعالى: «اذهب أنت وأخوك بآياتي» وهي اليد والعصا. «ولا تنيا» (طه: ٤٢) تضعفا وتفترا وتُقصِّرا. «إذهبا إلى فرعون إنه طغى» أي عتا وتجبَّر،

«فقولا له قولاً ليِّناً» (طه: ٤٤) أي لا تُعنِّفاه ولا تغلظا له؛ وقال عكرمة: معناه كنِّياه. فإن الملوك يأنفون من التوبيخ بين الناس، ولهذا قالوا: لا ينبغي لأحد أن يقابل السلطان بما يكره، بل يكتب النصائح في ورقة.

وفي آية «اذهبا إلى فرعون إنه طغى» (طه: ٤٣) أي علا وتكبَّر وكفر، فادعه إلى عبادتي، واعلم أني قد ربطت على قلبه، فقال يا رب كيف تأمرني بهذا وقد ربطت على قلبه؟ فقال له مَلَك من خُزَّان الريح: يا موسى انطلق، فإننا إثنا عشر ألف خازن من خزان الريح، لا ندري ما هذا؟ ولا علمناه.

فإن قيل فقد علم الله منه أنه لا يؤمن، فما معنى قوله «لعلَّه يتذكر أو يخشى» (طه: ٤٤).

فالجواب: إن في ذلك تركيب الحجة عليه، لاحتمال أنه إذا رأى العذاب يقول: لا ذنب لي، فيُقال له: قد أُنذرت قبل ذلك، فلا عذر لك.

وقال مقاتل بن سليمان في المبتدأ: ولما عزم موسى على قصد فرعون، قال جبريل: يا إله العالمين، أترسله وهو عريان؟، وعند عدوه من العدة والعدد ما قد علمت، فقال له الله تعالى: «ادخل إلى الجنّة وانظر أعظم قلنسوةٍ فيها، فألبِسْهُ إياها، وانظر أوطأ ركابٍ فأركبه إياه، وانظر أصرم سيف فأعطه إياه، واختر له أشجع جند، فدخل الجنّة وخرج وليس معه شيء، فقال الله تعالى: فأين ما ذكرت لك؟ قال: يا إلهي!

ما وجدت قلنسوةً أعظم من الهيبة، ولا مركباً أعظم من التوفيق، ولا سيفاً أقطع من الحجة، ولا جنداً أبلغ من النصرة، ولا لباساً أتمَّ من العافية، فقال الله تعالى: فأعطه ذلك كله، فأعطاه إياه.

وقال وهب والحسن: أوحى الله إلى هارون فبشره برسالته ونبوة موسى، وأنه قد جعله وزيره ورسوله معه إلى فرعون، فإذا كان يوم الجمعة غرة ذي الحجة، فأخرج إلى جانب النيل قبل طلوع الشمس، لتلقى أخاك، ففعل.

والتقيا فتعانقا وبكيا، وذهبا إلى أمهما، فلما رأتهما العجوز، لم تتمالك دموعها من شدة الفرح، وقامت إلى موسى تضمُّه إلى صدرها، وتُقبِّل ما بين عينيه، وتحمد الله تعالى أن حقق لها وعده، وعاد إليها موسى سالماً، ورسولاً من الله تعالى إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين. قال تعالى:

«وأوحينا إلى أُم موسى أن أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقِيه في اليمِّ ولاَ تخافي وَلا تحزني إنَّا رادوه إليك وجَاعلوُه مِن المرسلين» (القصص: آية ٧).

ثم توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى مدينة منف، عاصمة مملكة فرعون، وقد أحاطها بالأسود من كل جانب ومعها سوَّاسها لتوفر له الحماية والأمن. وأقبل موسى وهارون من الطريق الرئيسي الموصل إلى قصر فرعون، فلما رأتهما الأُسْد لم تزمجر كعادتها، بل صاحت صياح الثعالب، وكأنها فرحة مُسْتبشرة بمقدم رسولا رب العالمين، فأنكر ذلك سوَّاسها وخافوا من فرعون!!

ولما وصلا إلى باب القصر، قرعه موسى بعصاه، فعجب البواب من جُرأته، وقال بلهجة قاسية: أتدري باب من تضرب؟ إنما تضرب باب سيِّدك. فقال موسى: أنا وأنت وفرعون عبيد الله تعالى.

كان فرعون قد ادعى الربوبية، وأنكر الألوهية، واستخف بعقول قومه من المصريين، فنصَّب نفسه إلهاً عليهم يعبدونه من دون الله، ويقدمون له فروض الولاء والطاعة، ويذكر القرطبي أن الفرعون الذي ادعى الربوبية، هو الذي صنَّف المصريون في سيرته، وخلَّدوا ذكرها، وكانت أرض مصر على أيامه في نهاية العمارة، فعظمت دولته، وكثرت عساكره.

وفي مُناجاة موسى عليه السلام: يا رب لِمَ أطلت عمر عدوك فرعون مع ادعائه ما انفردت به من الربوبية وجحد نعمتك؟

فقال الله تعالى: أمهلته لأن فيه خصلتين من خِصال الإيمان: الجود والحياء.

وهو الذي أمر وزيره هامان أن يرد الأموال[1] التي أخذها ظلماً من المصريين؛ عندما حفر خليج السردوسي؛ قائلاً له: «ويحك! إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ولا يطمع بما في أيديهم».

وقال سعيد بن جبير: مَلَك فرعون أربعمائة سنة، ما جاع ولا حُمَّ ولا صُدِع، ولو ذاق شيئاً من ذلك لما ادعى الربوبية «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري» (القصص: ٣٨). هكذا كان شأن فرعون مع عِلْيَة قومه وسادتهم، فكيف يكون الحال مع بقية الرعية؟

وظل على هذا الوضع أربعين سنة كما يروي ابن عباس رضي الله عنه، ثم

(١) كان هامان قد أخذها من أهل القرى التي يمر بها الخليج.

ازداد خطره، واستفحل شره فكانت مقولته الفاجرة لقومه «أنا ربكم الأعلى»، وكذب عدو الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه[1] وقال الحسن: كان مع ادعائه الربوبية يعبد تيساً وقيل صنماً.

سأل فرعون القادمين: من أنتما؟

فقالا: «إنَّا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل، ولاَ تعذِّبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتَّبع الهُدى» (طه: ٤٧).

وفي آية أُخرى «إنَّا رسُولُ رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل» (الشعراء: ١٦- ١٧).

كان فرعون وقومه يستعبدون بني إسرائيل؛ قوم موسى وهارون.

أصدر فرعون أوامره إلى قومه فكانوا يستعملون نساء بني إسرائيل للخدمة في البيوت، ويذبحون الأبناء، أما أهل القوة منهم فكانوا ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم، ودبرت ظهورهم، وطائفة ينقلون الخشب، وآخرون يبنون، وقوم يطبخون الأجرّ[2]، وآخرون يعملون الحديد، ووضع فرعون على الضعفة منهم الضرائب، يؤدون كل يوم ضريبة، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غُلَّت يمينه إلى عنقه شهراً وكانت النساء يغزلن الكتان وينسجنه أيضاً.

لهذا كان طلب موسى وهارون إلى فرعون أن يدع بني إسرائيل لكي يذهبوا معهم إلى الشام (فلسطين) كما أمرهم الله.

نظر فرعون فإذا الذي يكلمه هو نفسه موسى الذي رباه في قصره، فقال بلغة المنِّ والاستحسان:

«ألم نُرَبِّك فينا وليداً» «وفعلت فعلتك التي فعلت» (الشعراء: ١٩).

فقال له: يا فرعون آمن برب العالمين.

فقال: خذوه، فبادرهم موسى «فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين» (الشعراء: ٣٢) فحملت على جند فرعون فانهزموا، وتدافعوا حتى قتل بعضهم بعضاً، وقام

---

(١) القرطبي، ج ١٣، ص ٢٨٨.

(٢) الطوب (اللبن المطبوخ).

فرعون فولى مذعوراً إلى داخل قصره، ثم عاد وهو يرتجف ويقول لموسى: إجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه.

فقال له موسى: لم أؤمر بذلك، وإنما أُمرت بمناجزتك، فإن أنت لم تخرج إليَّ دخلت إليك.

فأوحى الله إلى موسى: اجعل بينك وبينه أجلاً، واجعل ذلك إليه.

فقال فرعون: أجّلني أربعين يوماً، ففعل.

وكان فرعون يخرج للنزهة كل أربعين يوماً مرة، فأخلف ذلك اليوم أربعين مرة، وفي كل مرة يصطحب موسى أخاه هارون ويذهبا للقاء فرعون، فلا يخرج لمقابلتهما، حتى أخلف موعده أربعين مرة.

وقال وهب: إن موسى لما دخل على فرعون قال له: آمن حتى أسأل الله أن يرد عليك شبابك، فأخبر هامان بذلك، فقال له: اصبغ بالسواد، فصبغ، وهو أول من فعل ذلك.

قال علماء السير: لما دخل موسى على فرعون قال له: إن كنت جئت بآية فأت بها «فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين» (الشعراء: ٣٢، ٣٣) وأخرجها ولها شعاع مثل شعاع الشمس.

كان أمر موسى وما جاء على يديه من الخوارق والمعجزات وهي العصا واليد، أهم ما يقلق بال فرعون وينغص عليه حياته فبعد أن استوت له الأمور مع قومه المصريين وأعلن نفسه إلهاً لهم دون منازع، فكيف يجيء اليوم من ينازعه في هذا الأمر؟

فضلاً عن كونه إسرائيلياً، وهم فئة قليلة مُستعبدة عنده وعند قومه. وكيف يجحد موسى فضله وإحسانه إليه وهو الذي رباه في قصره وخصه برعايته حتى شب وترعرع وكان يعتبره ابناً وبعد هذا يكون هو الذي ينازعه أمر ألوهيته؟ وبعد أن مكث زمناً ليس بالقليل وهو يقول لقومه «ما علمت لكم من إله غيري؟» ثم أعلنها صراحة دون مواربة «أنا ربكم الأعلى».

لهذا بعث في طلب موسى وأرسل إليه ليناقشه فيما يدعيه. وجاء موسى ومعه أخاه هارون كالعادة.

قال فرعون في تعال واستكبار: «وما رب العالمين»؟ يا موسى: من هو هذا الذي تزعم أنه رب العالمين؟ هل هناك إله غيري؟

قال موسى مخاطباً فرعون وأشراف قومه من حوله: الله هو خالق السموات والأرض، والمنصرف فيهما بالإحياء والإعدام، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار. وغير ذلك من المخلوقات البديعة، إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فهذا أمر ظاهر جلي «قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين» (الشعراء: ٢٤).

نظر فرعون إلى من حوله من أشراف قومه وقال على سبيل التهكم والاستهزاء من موسى: ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره؟! أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته.

فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة قائلاً: الله هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات: ٢١).

فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون وقال ساخراً: «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» (الشعراء: ٢٧).

فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بأقوى منها «قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» (الشعراء: ٢٨). أي أن الله تعالى هو الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب وهذا مشهد يتكرر كل يوم ويبصره العاقل والجاهل ولا يقدر عليه إلا رب العالمين، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى: «ألم ترَ الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله المُلْك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أُحيي وأُميت قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهتَ الذي كفر» (البقرة: ٢٥٨).

ولهذا لما غُلِبَ فرعون، وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوتّه وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

«قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين» (الشعراء: ٢٩).

وكان سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع أحداً حتى يموت.

ويتكرر المشهد القرآني السابق في آية أخرى، يبعث فرعون في طلب موسى عليه السلام فيأتي يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: «فمن ربكما يا موسى» (طه: ٤٩). وكانت هذه مناظرة أخرى، أي قال فرعون: من هذا الرب الذي تدعوني إليه يا موسى؟ فإني لا أعرفه؟

ولم يقل من ربي لغاية عتّوه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى» (طه: ٥٠).

أجاب موسى: ربنا الله الذي أبدع كل شيء خَلقه ثم هداه لمنافعه ولمصالحه، وهذا جواب في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع. وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان.

قال الزمخشري: ولله درُّ هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف.

لَمَّا أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدَّر فهدى، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى قائلاً: ما بالهم إذْ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟

«قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضلُّ ربي ولا ينسى» (طه: ٥١- ٥٢).

أي قال موسى عليه السلام: علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطر في اللوح المحفوظ، لا يخطىء ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها. لم تكن التوراة قد نزلت على سيدنا موسى ولهذا ردَّ العلم إلى الله تعالى، لأنها إنما أنزلت عليه بعد غرق فرعون وخروجه من مصر.

ثم شرع موسى يبين له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال «الذي جعل لكم الأرض مهداً» أي جعل الأرض كالمهد تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم «وسَلَك لكم فيها سُبُلا» أي جعل لكم طرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم «وأَنزل من السماء ماءً» أي أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فُراتاً «فأخرجنا به

أزواجاً من نبات شتى» أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة، كل صنف منها زوج، وفيه التفات من الغيبة إلى المتكلم تنبيها على عظمة الله تعالى «كُلوا وارعوا أنعامكم إنَّ في ذلك لآيات لأولي النُّهَى» (طه: ٥٣ ـ ٥٤). أي كلوا من هذه النباتات والثمار. واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعم، وإنَّ فيها ذُكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته.

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد (يوم القيامة) فقال: «منها» أي من الأرض «خلقناكم وفيها نعيدكم ومِنهَا نُخرجكم تارةً أخرى» (طه: ٥٥).

أي من الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً... ومن الأرض نُخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب.

فما موقف فرعون؟ لم تتغير فيه المكابرة، ولم يستطع النزول عن عنجهيته، بل تمادى في غيه، وأخذته العزة بالإثم؛ واتجه إلى من معه من الملأ، وقال: «إنَّ هَذا لساحرٌ عَليمٌ. يريد أن يخرجكم من أرضكم بِسْحره فماذا تأمُرونَ» (الأعراف: ١١٠).

إلى هنا وقد لعب فرعون بعقول القوم، وحفزهم واستنجد بهم على موسى وأخيه، فماذا يفعل القوم إزاء هذا كله وقد استشارهم فرعون، وأعلى من قدرهم بهذه المشورة؟

«قالُوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عَليم» (الأعراف: ١١٢).

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام وتسخير الله تعالى لهم في ذلك اليوم، ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرةً، وأمام الملأ والكل حاضرون شاهدون.

«قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتيك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لانخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى. قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحْشر الناس ضُحى» (طه: ٥٧ ـ ٥٩).

واختلفوا فيه قال ابن عباس: يوم عاشوراء، كانوا يتزينون فيه؛ وقال مقاتل: يوم عيدهم؛ وقال ابن المسيب: يوم النيروز.

المؤمنون مع آسية رضي الله عنهم

كانت آسية امرأة فرعون من هؤلاء النفر الذين أتم الله عليهم بنعمة الإيمان ومنهم شمعان أو شمعون[1] مؤمن آل فرعون الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وكان ابن عم فرعون، وقيل من آله. قال مجاهد: وهو الذي قال الله فيه «وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى» (القصص: ٢٠) وجادل عن موسى فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربيِّ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم» وقوله «أتقتلون رجلاً أن يقول ربيّ الله» استفهام إنكار «وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه» لا يضركم «وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعضُ الذي يعدكم» (غافر: ٢٨) من العذاب، والمراد بالبعض ها هنا الكل.

وثالثتهم مريم بنت موميا ماشطة بنت فرعون وكان هؤلاء الثلاثة قد أوقع الله في قلوبهم الإسلام، وكتموا إيمانهم خوفاً من فرعون وبطشه.

قال ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون إلا هؤلاء الثلاثة.

وروى أحمد في مسنده، عن عبد الرحمن بن محمد القزاز، قال، قال رسول الله ﷺ: «لما أُسريَ بي مررت برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الريح؟ قال هذه ريح ماشطة ابنة فرعون، كانت تمشطها فوقع المشط من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، بل ربي وربّ أبيك، فأخبرت فرعون، فدعاها فقال: من ربك؟ فقالت: ربي الله الذي في السماء، فأمر بنقرة[2] من نحاس فأحميت، ودعا بها وبولدها.

فقالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفقها[3] جميعاً.

فقال: إن لك من الحق علينا ما تستوجبين ذلك.

وكان لها أولاد فجمعهم، ثم ألقى واحداً بعد واحد في النقرة وهي تغلي، حتى إذا كان آخر ولدها، وهو طفل رضيع، أنطقه الله تعالى: يا أماه اصبري، فإنكِ على الحق، فألقاها مع أولادها.

---

(١) وقيل حبيب وقيل حزقيل، وقال مقاتل: خبرك والله أعلم.
(٢) النقرة: وعاء ضخم عميق مصنوع من النحاس.
(٣) مسند أحمد: وتدفننا.

وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال[1]: كان إيمان آسية إمرأة فرعون من قِبَلْ إيمان امرأة خازن فرعون وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها، فقالت: تعيس من كفر بالله، فقالت لها بنت فرعون: ولكِ ربٌ غير أبي؟

قالت: نعم، ربي وربُ أبيك ورب كل شيء، الله.

فلطمتها بنت فرعون، وضربتها، وأخبرت أباها، فأرسل إليها فرعون، فقال: تعبدين ربًّا غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك وربُ كل شيء الله وإياهُ أعبد، فعذبها فرعون، وأوتد لها أوتاداً، فشد يديها ورجليها، وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك، فأتى عليها يوماً، فقال لها: ما أنتِ منتهية؟.

فقالت له: ربي وربك ورب كل شيء الله.

فقال لها: إني ذابح إبنك في فيك إن لم تفعلي.

فقالت له: إقضِ ما أنت قاض فذبح ابنها في فيها، وإن روح ابنها بشرها فقال لها: أبشري يا أُمه فإن لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت، ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك فقالت له مثل ذلك، فذبح إبنها الآخر في فيها، فبشرها روحه أيضاً، وقال لها: اصبري يا أُمه فإن لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا، قال وسمعت امرأة فرعون (آسية)، كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر، فآمنت امرأة فرعون، وهكذا أراد الله لها السعادة، فكانت من المؤمنين برسالة موسى وهارون.

وقبض الله روح إمرأة خازن فرعون، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لآسية، حتى رأت فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً.

اجتماع السحرة

قال تعالى: «فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى. قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى» (طه: ٦٤).

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد

(١) تفسير ابن كثير آية (٩- ١٢).

مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، على درجة عالية من المعرفة بعلم السحر وفنونه، فاجتمع منهم خلق كثير، قيل كانوا ثمانين ألفاً. قاله محمد بن كعب، وقيل: سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بردة، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفاً، وقال محمد بن اسحق: خمسة عشر ألفاً.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً، وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فتَعلّموا السحر، ولهذا قالوا: «وما أكرهتنا عليه من السحر» (طه: ٧٣). وفي هذا نظر.

وأصدر فرعون أوامره إلى أهل مملكته أن يحضروا هذا الموقف العظيم؛ فحضروا جميعاً عن بكرة أبيهم يتقدمهم فرعون وأمراؤه ورجال الدولة والوزراء وطوائف الشعب على اختلاف طبقاتهم، فخرجوا وهم يقولون: «لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين» (الشعراء: ٤٠).

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطي السحر بالباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: «ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم» (طه: ٦٢).

قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر. وأسرّوا التناجي بهذا وغيره.

«قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما» (طه: ٦٣). يقولون: إن موسى وأخاه هارون، ساحران عليمان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرهما عليكم بهذه الصناعة.

«فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً، وقد أفلح اليوم من استعلى» (طه: ٦٤).

وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والبهتان.

وهيهات! كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أنى يعارض البهتان، والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الديان، على يدي عبده الحكيم، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان!

«قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا، فإذا

حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى» (طه: ٦٥ - ٦٩).

لما اصطفت السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا: يا موسى إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك «قال بل ألقوا» أنتم، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي، فأودعوها الزئبق وغيره، من الأشياء التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحَرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، فألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: «بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون» (الشعراء: ٤٤).

قال الله تعالى: «فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عليم (الأعراف: ١١٦). وقال تعالى «فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى» أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم قبل أن يلقي ما في يده، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه في هذه الساعة الراهنة: «لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى».

فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: «ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون» (يونس: ٨١ - ٨٢).

وقال تعالى: «وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك، فإذا هي تلقف ما يأفكون. فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وألقي السحرة ساجدين. قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون» (الأعراف: ١١٧ - ١٢٢).

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، ولها عنق عظيم وشكل هائل مزعج، ففزع الناس منها وهربوا سراعاً، وأقبلت هي على ما ألقاه السحرة من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون من أمرها!

وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صنعتهم، وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم

أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، وليس من الخيال، فلا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي بعثه به.

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، فأنابوا إلى ربهم وخرّوا له ساجدين، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى، بل قالوا جهرة للحاضرين: «آمنا برب هارون وموسى».

قال سعد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم، وتُزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا بموسى وهارون وأشهروا إسلامهم على الناس بهذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره، وأعمى بصيرته وبصره.

فقال مخاطباً السحرة بحضرة الناس: «آمنتم له قبل أن آذن لكم» (الشعراء: ٤٩). أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي؟!

ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد قائلاً: «إنه لكبيركم الذي علمكم السحر» (الشعراء: ٤٩). وقال في الآية الأخرى «إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها، فسوف تعلمون» (الأعراف: ١٢٣).

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يرَ هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟

ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم، واحتباهم من كل فج عميق، ووادٍ سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

والحقيقة أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر، وزاد في عتوه وجبروته وطغيانه لما رأى إيمان هؤلاء السحرة بموسى وهارون وشاهده عياناً بياناً بحضرته وبين رعيته، فقال مهدداً متوعداً: «لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف» يعني يقطع اليد

اليمنى والرجل اليسرى وعكسه، «ولأصلبنكم أجمعين» (الأعراف: ١٢٤). أي ليجعلهم مُثْلةً ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته.

ولهذا قال: «ولأصلبنكم في جذوع النخل» (طه: ٧١). أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر.

«ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى» (طه: ٧١). يعني في الدنيا.

فماذا قال المؤمنون بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم ورأوا بعين اليقين منازلهم وقصورهم في الجنّة؟

«قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات» أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات «والذي فطرنا» قيل معطوف وقيل قسم «فاقض ما أنت قاض» أي فافعل ما قدرت عليه «إنما تقضي هذه الحياة الدنيا» أي إنما حُكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله «إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى» (طه: ٧٣). أي ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب إليك والترغيب «وأبقى» أي وأدوم من هذه الدار الفانية. وفي الآية الأخرى:

«قالوا لا ضير، إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا» أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم «أن كنا أول المؤمنين» (الشعراء: ٥١). أي من القبط؛ بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضا: «وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا» أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاء به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا «ربنا أفرغ علينا صبراً» أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد، «وتوفنا مسلمين» (الأعراف: ١٢٦).

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: «إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا» يقولون له: فإياك أن تكون منهم. فكان منهم «ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى» أي المنازل العالية، «جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى» (طه: ٧٤ ـ٧٦). فاحرص أن تكون منهم، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع، وحكم العلي العظيم بأن فرعون ـ لعنه الله ـ من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، ويصب من فوق رأسه الجحيم.

ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبـوح والذميم اللئيم: «ذق إنك أنت العزيز الكريم» (الدخان: ٤٩).

والظاهر من هـذه السياقـات أن فرعـون ـ لعنه الله ـ صلبهم وعـذبهم رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، فصاروا آخـره شهداء بررة!

ويؤيد هذا قولهم: «ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين»(الأعراف: ١٤٦).

فأين كانت آسية رضي الله عنها من كل هذه المشاهد التي مرت بنا؟

يقول القرطبي فيما يرويه سعيد بن جبير عن عبدالله بن عبـاس رضي الله عنهما: في هذا اليوم، ظهـرت آسية من قصرهـا بارزة متبـذِّلة، من شـدة لهفتها عـلى موسى، وهي تدعو الله بالنصر له على فرعون. فمن رآها من آل فرعون ظن أنها تبذَّلت شفقة على فرعون وأتباعه، وإنما كان حزنها وهمهـا على مـوسى عليه السـلام خشية أن يغلبـه فرعون ومن معه، وكانت قلقة تسأل من تقع عينها عليه من الرعية: من غلب؟

فيقولون: موسى وهارون.

فتقول: آمنت برب موسى وهارون.

عِلمُ فرعون بإيمان آسية واستشهادها عليها السلام

لما علم فرعون بإيمان آسية، جمع وزراءه وأعوانه وشاورهم في أمرها، فقال: ما تعلمون عن آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها.

فقال لهم: إنها تعبد غيري.

فقالوا له: أقتلها.

فضرب لها أوتاداً وشدَّ يديها ورجليها وأمر بأن توضع على صدرها صخرة كـأكبر ما يكون.

وقال: فإن رجعت عن دينها فخلُّوا سبيلها.

ومر بها يوماً مـوسى وهي علـى حالهـا تلك فـوقف ينظر إليهـا فأشـارت دون أن تتكلم، مما تعانيه من العذاب على يدي فرعون وزبانيته، وفهم النبي الحكيم إشارتها،

فدعا الله أن يخفف عنها العذاب واستجاب الله لدعاء نبيه موسى، فأذهب الله عنها ألم العذاب فلم تكن تحس به.

وكشف الله عن بصرها، فرأت قصرها في الجنّة، فقالت: اصنعوا ما بدا لكم، فقد رأيت قصري ومنزلتي في الجنّة، فذلك قولها: «رب ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (التحريم: ١١).

فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنّة فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها؟ إنا نعذبها وهي تضحك!

وكانوا إذا تفرقوا عنها أطلقتها الملائكة.

لقد استجاب الله للصدِّيقة التي كرَّم الله بها مصر آسية بنت مزاحم، فأراها قصورها ومنازلها في الجنّة قبل أن تفارق الدنيا، فماتت على ذلك، وقبض الله روحها في الجنّة رضي الله عنها.

تكريم الله لآسية رضي الله عنها في القرآن الكريم والسُّنة النبوية

ما أجمل تكريم الله للمؤمنين من عباده.

لقد كرَّم الله آسية، امرأة فرعون؛ رضي الله عنها في القرآن الكريم حيث ورد ذكرها في سورتين من سور الذكر الحكيم، يتلوه المسلمون ويتعبدون به في كل زمان ومكان، وكما سبق أن ذكرنا فهي الصدِّيقة التي كرَّم الله بها مصر وقد كفلت عبد الله ورسوله سيدنا موسى كليم الله عليه السلام.

قال تعالى: «وقالت امرأتُ فرعون قُرَّتُ عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون» (القصص: ٩).

وقال تعالى في سورة التحريم: «وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين» (التحريم: ١١).

وأما ما يتصل بالسُّنة النبوية فحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس

رضي الله عنهما قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: «أتـدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجـة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون».

سلام على أكمل النساء آسية بنت مزاحم في الأولين والآخرين، ورضي الله عن خير نساء العالمين وجزانا الله عنها خير الجزاء إنه على ما يشـاء قديـر وبالإجـابة جـدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الفصل الرابع

سيدة نساء أهل الجنّة وأكمل
النساء، خير نساء العالمين وأم المؤمنين

السيدة خديجة الكبرى

رضي الله عنها

«أتى جبريل النبي ﷺ فقال: هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنّة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» متفق على صحته فقال ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك، فأجابت: الله السلام، ومنه السلام وعلى جبريل السلام» رواه البخاري.

وفاء النذر

عبد المطلب جد النبي ﷺ وشيخ قريش بلا منازع. عانى من قريش عند حفره بئر زمزم، ولم يكن معه وقتها سوى ابنه الحارث الذي وقف يذود عن أبيه بمفرده في هذا الموقف العصيب وفي هذا الزمان الذي تُحسب فيه للكثرة العددية ألف حساب.

عندئذ نذر عبد المطلب لئن وُلد له عشرة من الذكور ثم بلغوا رشدهم، حتى يمنعوه، لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة. فلما بلغ عددهم عشراً، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟

قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم أتوني، ففعلوا.

عبد المطلب يحتكم إلى القداح

ذهب عبد المطلب وبنوه إلى صاحب القداح، فقال له عبد المطلب: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذي نذر، وكان عبد الله والد النبي محمد ﷺ، أحبُّ أولاد عبد المطلب إلى قلبه، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى[1]

ثم ضرب صاحب القداح السهم مرتين وفي كل مرة يخرج السهم على عبد الله.

أخذ عبد المطلب ابنه عبد الله بيده، واستحد شفرته، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه.

هنا ثارت ثائرة قريش وبخاصة الفتيان من شبابهم.

وتوجهوا إلى عبد المطلب وقالوا جميعاً في نفس واحد:

(١) أشوى، أبقى.

والله لن ندعك تذبح عبد الله حتى تعذر فيه. لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فتصير عادة بين العرب... فما بقاء الناس على هذا.

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أحد كبار رجالات قريش وخال ابنه عبد الله:

والله لا تذبحه أبداً.. حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وقال له بنوه كذلك.

ثم أشاروا عليه أن يعرض أمره على عرافة بالحجاز زعموا أن لها تابعاً... لكي يسألها الرأي والمشورة فما أشارت به يمضه من وقته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ـ فوجدوها فيما يزعمون بخيبر ـ فجاؤوها.. وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه عبد الله وما أراد به ونذره فيه.

فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم قالوا: عشراً من الأبل، وكانت كذلك.

قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم وقرِّبوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم، فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا من عندها، وقد أجمعوا على ذلك الأمر حتى قدموا مكة، ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل وهم يضربون القداح فيخرج السهم على عبد الله، فيزيدون في عدد الإبل، حتى صارت مائة فخرج السهم على الإبل، ثم أعادوا الكرة فخرج السهم على الإبل.

فقالت قريش ومن حضر: الآن قد رضي ربك يا عبد المطلب، ثم نُحرت الإبل.

وهكذا كتب الله النجاة لعبد الله والد النبي محمد ﷺ ليعيد إلى الأذهان ذكرى الذبيح الأول اسماعيل بن ابراهيم جد العرب العدنانية.

وصدق النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه حين يصف نفسه بأنه «ابن الذبيحين».

وتمضي الأيام والسنون ويتزوج عبد الله بأفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً،

بالسيدة آمنة بنت وهب والدة النبي محمد ﷺ فتحمل بأكرم خلق الله حسباً ونسباً بسيدنا محمد ﷺ. ولكن سرعان ما يموت والده عبد الله.

أنوار الوليد وبركاته

لما وُلد ﷺ، أرسلت أمه آمنة إلى جده عبد المطلب، فلما جاءها وجد سحابة قد أظلت حجرتها، فجعل يمسح عينيه ويقول: أنا نائم أو يقظان؟ فلما فتحوا له الباب إذا المسك يفوح من حجرتها فاستخبرها فقالت: يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب.

فذعر عبد المطلب وقال: أليس بشراً سوياً؟

فقالت: نعم، ولكنه حين ولادته خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وسبابته إلى السماء.

فقال عبد المطلب: دعيني أنظر إليه، وحمله بين يديه، وقام به إلى الكعبة، فشكر الله على إنعامه، ودعا له وهو يطوف به الكعبة وينشد:

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلام الطيب الأردان[1]
قد ساد في المهد على الغلمان ... أُعيذه بالبيت ذي الأركان
من حاسد مضطرب العيان ... حتى أراه بالغ البنيان

ويتألق البوصيري في همزيته وهو يشير إلى أمر ولادته ﷺ ورفع الرأس إلى السماء فيقول:

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... وُلد المصطفى وحق الهناء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخارٍ ما لم تنله النساء
رافعاً رأسه وفي ذلك الرفع ... إلى كل سؤددٍ إيماء
رافعاً طرفه السماء ومرمى ... عين من شأنه العلوّ العلاء

ويومها ذبح عبد المطلب الذبائح، احتفاء بالمولود السعيد، وأطعم أهل الحرم حتى سباع الطير ووحش الفلاة.

وكانت مكة حين استقبلت بشرى المولود المبارك ما تزال تحتفل بفرحة نصرها

---

(١) الأردان: مفردها ردن وهي الأكمام، وطيبها كناية عن طيب أخلاقه وكماله ﷺ.

على أهل الفيل، فربطت بين ميلاده المبارك وذلك النصر العزيز، فقد قال ابن عباس: إن المولد كان يوم الفيل، فجر يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول (إبريل ٥٧١م).

ويرحم الله أمير الشعراء، أحمد شوقي حيث يقول في همزيّته:

يوم يتيه على الزمان صباحه ومساؤه بمحمد وضاء
والآي تترى والخوارق جمةٌ جبريل روّاح بها غدّاء

وأبلغ البيان، آي الذكر الحكيم في القرآن قال تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجّيل. فجعلهم كعصف مأكول» (سورة الفيل).

وسمّاه جده عبد المطلب «محمداً»، ولم يكن ذلك الإسم شائعاً بين العرب في ذلك الوقت.

كما لم يفت قريش أن تسأل شيخها عبد المطلب. لِمَ سمّى حفيده مُحمداً؟

فأجاب: أردت أن يكون محموداً في الأرض وفي السماء.

وكما كانت عادة شريفات قريش أن يدفعن بأولادهن إلى مرضعات البادية لكي تصح أجسادهم وتفصح ألسنتهم، فقد استقبل عبد المطلب مرضعة حفيده «حليمة السعدية» من بادية بني سعد، وسألها من أنت؟

فقالت: أمرأة من بني سعد.
قال: ما إسمك؟ قالت: حليمة.

فتبسم وقال: بخ بخ، سعد وحلم، خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد.

وتحكي حليمة قصتها مع الوليد المبارك فتقول إنها وضعت يدها على صدر الوليد المبارك، فتبسّم ضاحكاً، وفتح عينيه ونظر إليها، فخرج منهما نور صعد إلى السماء.

قالت: وأنا أنظر إليه فقبّلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى فناولته لأخيه من الرضاع.

وأضافت تقول: فروى، ثم روى أخوه.

ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلي، وقام زوجي إلى شارفنا(١) من الليل فإذا بها حافل(٢)، فحلب وشرب، وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة.

فقال زوجي: يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم ترِ ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيراً.

وكانت حليمة ترقِّصْ الوليد المبارك وتقول:

يا رب إذ أعطيته فأبقه وأهله إلى العُلا وأرقه
وادحض أباطيل العِدا بحقه

وتوالت بركات الوليد... تقول حليمة السعدية: قدمنا منازل بني سعد ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضر من قومنا يقول لرعاتهم:

ويلكم! ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليمة؟!

فيسرحون في الشِّعب الذي يسرح فيه، فتروح أغنامهم جياعاً ما بها لبن، وتروح غنمي لُبّنا، فلم يزل الله يرينا البركة ونتعرفها ببركته ﷺ.

وألقى الله محبته في القلوب فكانوا إذا نزل بأحدهم أذى في جسده، أخذ كف الوليد المبارك فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى. ومن نزل به ضر في عينيه. مسح بيد الوليد المبارك على عينيه فيبرأ بإذن الله تعالى...

وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة أو فرس فيأخذون بيده المباركة فيمرون بها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله عز وجل.

ولقد كان يمس ضرع الشاة للقوم فتحلب غبوقاً(١) وصبوحاً(٢)

---

(١) الشارف: الناقة المسنة.
(٢) حافل: ممتلئة الضرع باللبن.
(٣) غبوق: ما يشرب بالعشى.
(٤) صبوح: ما يشرب في الصباح.

قالت: وما على وجه الأرض شيء تأكله دابة، وأنبت الله ببركته ﷺ الأرض فأعشب الوادي.

وكانت ابنة مرضعته حليمة السعدية، الشيماء، تحضن الوليد المبارك، وترقصه وتقول:

هذا أخ لي لم تلده أمي ... وليس من نسل أبي وعمي
فديته من مُخْوِلٍ[1] مُعمٍّ[2] ... فأنمه اللهم فيما تنمي

كما كانت تقول:

يا ربنا أبق أخي محمداً ... حتى أراه يافعاً وأمرداً
ثم أراه سيداً مسوداً ... وأكبت أعاديه والحسّدا
وأعطه عزاً يدوم أبداً

أقام محمد في بادية بني سعد بن بكر أربع سنوات، كان خلالها موضع رعاية «حليمة السعدية» التي أرضعته، وابنتها الشيماء التي حضنته كما علمنا، وأبنائها الذين رافقوه ولعبوا معه. وقد كسب محمد ﷺ الكثير من صفات البادية، نذكر منها ملكة النطق وصفاء الذهن، وأكسبته صحة الجسم والنفس وصلابة الخلق وفصاحة اللسان.

مرارة اليتم عبر السنين

عاد محمد إلى مكة وهو فتى في الخامسة من عمره، ليكتمل يتمه، فقد وافت المنية أمه في أثناء الرحلة التي أخذت فيها «محمداً» ﷺ، لزيارة أخواله من «بني النجار» في يثرب (المدينة المنورة) وبالمكان الذي توفي فيه أبوه. وقد تركت وفاة أمه أثراً عميقاً مؤلماً في قلبه، وما أكثر ما كان يمر في مكة بالبيت المهجور الذي ضمّه وأمه زمناً، ثم أوحش من بعدها وخلا!

وما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعي خارج مكة، فإذا حان المساء وآن له أن يعود

---

(١) مخول: كريم الأخوال.
(٢) معم: كريم الأعمام.

إلى منزله، توقف برهة عند مدخل البلد الحرام، وتمثل نفسه، وهو عائد من رحلته الأولى إلى يثرب، وحيداً، محزوناً مضعضع الحواس، مضاعف اليتم، بفقد أمه، وهو يتبع جاريته «بركة» واني الخطو صامتاً واجماً.. يسعى إلى بيت جده الشيخ عبد المطلب.

وعبد المطلب هو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب، وقُصيٌّ هو الزعيم العربي الذي وضع أمجاد قريش وجمع شملها، ووحد كلمتها. فحظيت بالهيبة وشرف المنزلة بين العرب جميعهم.

وجاء من بعده حفيده عبد المطلب فاستطاع بقوة شخصيته أن يتولى أبرز المناصب في مكة وهي: «السدانة» أي الإشراف على الكعبة، و«السقاية» وهي توفير الماء للحجاج، و«الرفادة» وهي توفير الطعام، والقيادة وهي إمارة القوم في القتال والتجارة... لهذا قال النبي ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل، واصطفى من اسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بن هاشم، واصطفاني من بني هاشم فأنا خيار من خيار».

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التي تروع صباه بفقد أمه عامين كاملين.. وهو يضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامي في قلب حفيده الصغير العزيز.. مُحمد.

لكن الزائر المرهوب الذي ألم بآل الغلام، فانتزع أباه ثم أمه، عاد من جديد فطوف بحي بني هاشم، وتلبّث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب، وينذر بالرحيل. ووقف الغلام مرة ثانية، يرقب الحياة وهي تنطفيء فيمن كان له أباً بعد أبيه...

وأصغى في حزن ذاهل إلى صوت الشيخ المحتضر وهو يدعو إليه ولده «أبا طالب» فيوصيه بمحمد، ابن أخيه عبد الله ثم يمضي...

وانتقل الصبي من بعده إلى منزل جديد، وألف لدى عمه أباً ثالثاً... لكنه ظل يفتقد الأم.

وبقي على مر الأيام والشهور والسنين يذكرها... ينزع نحو مرقدها الأخير وقلبه هناك معلق «بالأبواء».

ولم تستطع مشاهد الحياة الزاخرة الحاملة حول «البيت العتيق» في «أم القرى» أن تطوي في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه ووفاتها قرب «الأبواء». وإذ تتكاثف الظلمة من حوله، يجمع نفسه في جهد، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه، وفي نفسه إحساس مرهف بفراق وشيك فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذي أواه سبعة عشر عاماً، وحسب العم ما يحمل من أعباء بنيه الكثار.

ولكن إلى أين؟

إلى الشام مؤقتاً كما أراد له عمه في صباح يومه ذاك، فلقد حدثه في مطلع شمس هذا اليوم عن رحلة مرجوة الخير، كان الصادق الأمين.. إذ ذاك قد بلغ خمساً وعشرين سنة، وقد تم له رُشد الشيوخ، وتجربة الحكماء، وروية العقلاء.

وهذا ما دعا عمه أبا طالب أن يقول له: «يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من اليهود. وقد بلغني أن خديجة استأجرت رجلاً ببكرين.. ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك في أن أكلمها..

فكان جواب البار الرشيد: ما أحببت يا عم.

خديجة بنت خويلد

ليعلم القارىء.. أنه حين أشرقت على الدنيا أنوار ذلك الوليد المبارك «محمد» ﷺ كانت الفتاة الطاهرة «خديجة» حسناء في سن الزواج، وقد أضاف إلى حُسنها وجمالها عراقة الحسب والنسب، فتزوجت من «عتيق المخزومي» فمات تاركاً لها بنتاً ومالاً وتزوّجت من بعده أبا هالة بن زرارة التميمي فمات وترك لها طفلين.

فزواج السيدة الطاهرة خديجة لم يدم إلا بضعة أعوام، عاشت بعدها ترعى بنيها الصبية الأيتام، متسلية بهم عن فقد الزوجين واحداً بعد واحد، ورأت ألّا تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفذ في نفقات المعيشة، فتاجرت فيه وهي محتجبة في بيتها،

فكانت تستأجر رجالاً يعملون في التجارة لحسابها لقاء أجر فيكون لها ربح التجارة، وللأجراء أجر العمل.

التجارة الرابحة

سار أبو طالب إلى السيدة الطاهرة[1] وقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري مُحمداً ابن أخي.

فأجابت من فورها: لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته للقريب الأمين.

وأرسلت السيدة خديجة إلى الصادق الأمين[2] تستدعيه للخروج في تجارتها.

وقالت له: دعاني أن أبعث إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وسأعطيك ضعف ما أعطي رجلاً آخر من قومك.

وقد أخبر «مُحمد» عمه بحديث خديجة، فسُرَّ بذلك.

وقال: يا مُحمد هذا رزق ساقه الله إليك.

وتهيأت عير قريش للرحيل إلى الشام ومعهم الصادق الأمين محمد في تجارة خديجة ومعه غلامها ميسرة.. حتى أتت القافلة بُصرى فباع أهل القافلة واشتروا وقايضوا واستبسلوا وراجت تجارة خديجة رواجاً غير مسبوق فربحت تجارتها على يدي الصادق الأمين ضعف ما كانت تربح، وسُرَّ ميسرة بما رأى من رواج التجارة، فقد كان وفياً لسيدته مُعجباً بفضلها. وساعد الربح الوفير على العودة بقدر من البضاعة لم يخطر لها على بال.

وقد شاهد ميسرة في سفره عجباً، فقد رأى غمامة تظلل الأمين منذ غادر مكة إلى عودته فتقيه حرّ الشمس، وأنه خلا بنفسه يفكر، فجلس تحت شجرة عظيمة الساق، كثيرة الفروع، وارفة الظلال، وإذا براهب يدعى نسطورا؛ كان يعرف ميسرة من قبل؛ يقدم عليه ويسأله: من يصحبك يا ميسرة؟

أجاب: شاب من قريش.

---

(١) كان هذا لقبها في قومها.

(٢)كان هذا لقبه الذي لقبوه به قبل مبعثه ﷺ.

فقال نسطورا: ما الذي تعرف من صنعته؟

أجاب: الأمانة، والنزاهة وكرم الخلق، وجلوسه الساعات الطوال يفكر. . .

فسأله: وما شكل عينيه؟

أجاب ميسرة: واسع العينين أدعجهما، تشوب بياضهما من الجوانب حمرة خفيفة، تزيد في قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال، سود حوالك.

فقال نسطورا وهو يشير إلى حيث يجلس الأمين. يا ميسرة إن من يجلس بجوار هذه الشجرة، وتظله هذه الغمامة المنخفضة ليس إلا نبياً. فازداد ميسرة بالصادق الأمين إعجاباً فوق إعجاب!

ثم قال له يا مُحمد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فاكشف لي عن كتفك، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ بين كتفيه، فأقبل عليه يقبِّله. فظن القوم أن الراهب يريد بالأمين شراً، فاستل بعضهم سيفه وصاح: يا آل غالب، يا آل غالب، فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية.

وقالوا: ما الذي راعك؟!

فلما رأى الراهب ذلك دخل صومعته وأغلق بابها، ثم أشرف عليهم وفي يده صحيفة.

ثم قال: يا قوم ما الذي راعكم مني؟

فوالذي رفع السموات بغير عمد إني لأجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر، وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا، ومن عصاه فقد غوى.

وانفض القوم غير مكترثين بقول الراهب نسطورا.

وبينما تسير القافلة إلى مكة وفي طريق عودتها، يصيب الكلل بعيرين من الإبل التي يتعهدها ميسرة، ويحاول عبثاً أن يحملها على مسايرة الركب بلا جدوى. . فيرفع أمرهما إلى الأمين. . . الذي مسح بيده الشريفة على أخفافهما ثم أمسك بمقودهما وقادهما، فسارا خفافاً في نشاط ظاهر، كأن لم يكن بهما شيء.

فازداد ميسرة بتلك الخوارق إعجاباً على إعجاب.

فلما كانت القافلة بمرِّ الظهران، اقترح ميسرة على الأمين أن يسبق القافلة إلى مكة ليبشر سيدته بالربح الوفير الذي جاءها على يدي الأمين.

ولما وصل ميسرة إلى سيدته خديجة، قص عليها ما رأى وما سمع...

ثم علا ضجيج الركب مختلطاً بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التي أناخت على على ثرى «مكة» مطمئنة فمضى «مُحمد» على بعيره قاصداً دار خديجة بعد أن طاف بالبيت العتيق.

وكانت خديجة هناك في دارها، ترقب الطريق من علية لها في لهفة مشوبة بشيء من القلق... وما زالت تملأ أذنيها بحديث غلامها المثير ميسرة عن رحلته مع مُحمد، حتى ظهر لها أخيراً وهو يدنو بطلعته البهية، وملامحه النبيلة... فلما وصل إلى الدار اندفعت لتستقبله لدى الباب مرحِّبة، مهنئة بسلامة العودة في صوت يفيض عذوبة ورقة وحناناً...

ورفع إليها الأمين وجهه شاكراً، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وتجارته وما جاءها به من طيبات الشام... وأنصتت إليه شبه مأخوذة، حتى إذا ودعها ومضى، ظلت واقفة حيث هي، تتبعه عيناها إلى أن توارى في منعطف الطريق، واتجه هو إلى منزل عمه «أبي طالب» وهو يحس شيئاً من الرضى والارتياح، أنه عاد من رحلته موفقاً سالماً لم يمسسه أذى من يهود.

الزواج المبارك

قالت خديجة لنفسها: نعم الشاب محمد بن عبد الله؛ أمين صادق كامل الرجولة. أين في العرب مثل محمد؟

وحارت في أمرها كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة بعد أن نفضت يديها من الرجال، أو خرجت في حساب بيئتها من حياة الرجال؟ وكيف تلقى به قومها وقد ردت عن بابها الخطاب من سادة قريش وسُراة مكة؟

وفي غمرة حيرتها واضطرابها، زارتها صديقتها «نفيسة بنت منيه»، فلم يغب عنها الذي تجده صاحبتها، وسرعان ما كشفت لها عن سرها المطوي.

وهوّنت نفيسة الأمر عليها، فما في نساء قريش من تفوقها نسباً وشرفاً، وهي بعد ذات غنى وجمال، وكل قومها حريصين على الزواج منها لو يقدر عليه.

ثم تركتها وقد اعتزمت أمراً.

فذهبت السيدة نفيسة إلى بيوت بني هاشم تنشد الصادق الأمين، حتى إذا رأته في أحد بيوت عماته انتهزت خلوة به فسألته في ترفق وإغراء فيم عزوفه عن الدنيا. وقضاؤه على شبابه بالحرمان... هلا سكن إلى زوجة تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته؟

أجاب الأمين: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت نفيسة: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب؟

فقال الأمين: فمن هي؟

قالت: خديجة. قال: بنت خويلد. قالت: نعم.

فقال في ابتهاج: وكيف لي بذلك؟

قالت نفيسة: عليّ ذلك. فقال الأمين: وأنا قد رضيت.

وأشفق أن تبعد به أمانيه، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها، فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه، وانطلق يسعى نحو الكعبة، فإذا كاهنة تلقاه في طريقه، فتستوقفه سائلة:

جئت خاطباً يا محمد؟

فأجابها صادقاً: كلا.

قالت: ولِمَ فوالله فما في قريش إمرأة، وإن كانت خديجة لا تراك كفئاً لها.

ثم لم تكُ إلا فترة قصيرة المدى حتى تلقى دعوة «خديجة» فسارع إليها ملبياً وفي صحبته عمّاه «أبو طالب وحمزة أبناء عبد المطلب» وهناك في بيتها ألفوا قومها ينتظرون، وكل شيء مهيأ لزواج سريع.. وتكلم أبو طالب فقال:

«أما بعد، فإن محمداً، ابن أخي، ممن لا يوزن به فتى من قريش إلا رجحه شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلّ، فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة. ولها فيه مثل ذلك».

«فأثنى عليه عمها «عمرو بن أسد بن عبد العزي بن قصي، وأنكحها منه على صداق قدره عشرون بكرة».

ولما انتهى العقد، نُحرت الذبائح ودقت الدفوف، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء فإذا بينهم «حليمة السعدية» قد جاءت من بادية بني سعد لتشهد عُرس ولدها الذي أرضعته.

فإذا بالصادق الأمين يقوم إليها مستقبلاً، ويهش في وجهها ويرحب بمقدمها في حنو بالغ وقد بسط لها رداءه لتجلس عليه وهو يقول: أُمي... أُمي.

وهز ذلك العطف أحاسيس السيدة خديجة فذرفت عيناها الدموع، وأجزلت العطاء لأم زوجها الحبيب من الرضاع، وعادت حليمة في الغداة ومعها أربعون رأساً من الغنم هدية من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت زوجها الحبيب.

«وتندت عينا» مُحمد وهو يتفقد أمُه «آمنة» في موقف يتمنى كل زوج فيه أن يجد إلى جواره أمه... فإذا يد لطيفة تأسو جرحه القديم في حنان غامر... وإذا به يجد في خديجة عوضاً جميلاً عما قاساه من طول حرمان.

وزفت سيدة قريش إلى زوجها، وسعد الزوجان بالمودة والرحمة التي قامت بينهما واستقرت.. فعرفت فيه أُمنا الكبرى زوجاً كاملاً أكمل ما يكون الزوج كما عرفته من قبل أميناً أكمل ما يكون الأمين.

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاماً، وقد أتم الله عليهما نعمته، فرزقهما البنين والبنات: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة.

«وأرخى الزمن لهما من حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواماً ذات عدد، ارتوى محمد خلالها من نبع الحنان، معوضاً بذلك حرمان ماض يتيم، ومتزود لغد مقبل، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام.

وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الثكل في الولدين العزيزين، فكان للزوجين في وئامهما وتصبرهما، ما أعانهما على تجرع الكأس التي تدور على الناس جميعاً فلا يُعض من شربها أحد. وما كان ولداهما إلا وديعة ولا بد يوماً أن تُسترد الودائع.

نزول الوحي ورسالة السماء

كان الصادق الأمين يُنكر على قومه عبادتهم للأصنام التي تكدست حول الكعبة، وكان كفار مكة يتذرعون في عبادتهم لها بما وجدوا عليه آباءهم «أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (البقرة: ١٧٠).

فكان يذهب إلى غار حراء يخلو فيه إلى نفسه متعبداً متفكراً في صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ثم هدى واستطاب رياضته الروحية التي يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلي السر الأعظم.

كان الصادق الأمين قد شارف الأربعين... وأحاطت أمنا الكبرى زوجها الأمين بالعطف والرعاية في مسلكه هذا. وما كانت «خديجة» في وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحياناً، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت فإذا انطلق إلى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد عليه وحدته.

وهكذا بدا كأن كل شيء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة.

وحين أذن الله... وجاءه جبريل في غار حراء أول مرة فقال: إقرأ.

فقال: ما أنا بقارىء.

فضمه الملك ضمة شديدة ثم تركه وقال له: إقرأ.

قال محمد: ما أنا بقارىء.

فضمه الملك ضمة ثانية حتى بلغ منه الجهد وأضناه.

فقال: ما أنا بقارىء.

فضمه الملك ضمة ثالثة حتى بلغ منه الجهد.

وفي رواية، يقول الصادق الأمين: «حتى ظننت أنه الموت» ثم أرسلني... فقلت: ماذا أقرأ؟

(ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لمثل ما صنع) قال الملك: «إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم» (العلق: ١ - ٥).

قال: فقرأتها، وحفظتها.. ثم اختفى جبريل عن عينيه وكانت هذه أول سورة نزلت في القرآن الكريم.

ورحم الله أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

ونودي إقرأ تعالى الله قائلها   لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أُذِّن للرحمن فامتلأت   أسماع مكة من قدسية النغم

فرجع بها رسول الله ﷺ يلتمس داره، حتى دخل على خديجة، رضي الله عنها.

كان خائفاً شاحباً مرتعد الأوصال، وهو يقول: زمِّلوني... زمِّلوني[1]

حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة ما لي؟

فأخبرها الخبر وقال: قد خشيت على نفسي.

فضمته إلى صدرها، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها وهتفت في ثقة ويقين:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وأشرقت أسارير محمد، وزايله روعه، وأحس بالراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق إلى فراشه، فتضعه فيه كما تفعل أم رؤوم بولدها الغالي، ثم تهدهده بصوتها الشجي وتنثر على مضجعه أسنى الأحلام.

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادىء المطمئن... ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر حتى إذا بلغت الباب اندفعت تحث خطاها نحو ابن عمها «ورقة بن نوفل» وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ.

وجاءته «خديجة» فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها، لكنه ما كاد يصغي

---

(١) أي غطوني.

إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلاً، وتدفقت الحيوية في بدنه الواهن، فانتفض يقـول في حماس: «قدوس. . . قـدوس، والذي نفس ورقـة بيده لئن صـدقتني يـا خـديجـة. لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، إنه لنبي هذه الأمة، فقـولي له فليثبت».

ولم تنتظر مزيداً من قوله، بل عادت مسرعة إلى زوجها الحبيب تزف له البُشرى التي زفهـا إليها ورقـة بن نوفـل، ولم تشأ أن تـوقظه من نـومه، فجلست بـالقرب منـه منتظرة، تكاد تذوب نفسها من لهفة عليه وحب وحنان، وإذا به قـد استيقظ، يتفصد العرق من جبهته، يبدو كأنما يصغي إلى مُحدّث غـير ظاهـر ثم يردد مـا نقله إليه ذلـك المحدّث عن ربه:

«يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر» (المدثر: ١ـ٧). وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها، وما كادت تبشره بما سمعته من ابن عمها ورقة بن نـوفل، حتى نـظر إليها مليـاً نـظرة تفيض شكـراً وامتناناً. . ثم استدار ونظر إلى الفراش وقال متأثراً:

«انتهى عهد النوم يا خديجة، فقد أمرني جبريـل أن أنذر النـاس، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب؟».

فهتفت من فورها في لهفة وحماس:

أنا أستجيب لله يا مُحمـد، فادعني قبـل أن تدعـو أي إنسان وإني لمسلمـة لك، مصدقة برسالتك، مؤمنة بربك.

فكانت رضي الله عنها أول المؤمنات من النساء، كـما كان أبـو بكر أول من آمن من الرجال، وكان علي أول من آمن من الأحداث الذين لم يبلغوا الحُلم.

ثم استجاب، ﷺ، لأمنا الكبرى خديجة رضي الله عنها. . وقـام ينشد ورقـة، فلم يكد يراه حتى صاح:

«والـذي نفسي بيـده، إنـك لنبي هـذه الأمـة، ولتُكَـذَّبنَّ ولتُؤْذَيَنَّ ولتُخـرَجَنَّ ولتُقاتَلَنْ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه».

ثم أدنى رأسه إليه وقبله.

فقال له النبي ﷺ: «أو مخرجي هم؟».

فأجاب ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، ليتني أكون فيها جذعاً[1]، ليتني أكون حيّا.

وطابت نفس الرسول بما سمع، فآب إلى بيته مطمئناً ليبدأ نضاله من أجل الدعوة، ليلقى في سبيلها أفدح ما وعى تاريخ الأبطال من أذى واضطهاد، ولا عجب فهو سيد أولي العزم من الرسل الذين صبروا على الشدائد في تبليغ رسالات ربهم لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه.

ووقفت الزوجة المحبة المؤمنة إلى جانب زوجها المصطفى تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عدداً..

وأعلنت قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب وهم قومه حرباً مدنية لا ترحم، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة عُلِّقت في جوف الكعبة.. وقد اضطرتهم أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبي طالب في أطراف مكة حيث دام الحصار ثلاث سنوات... لم تتردد «خديجة» في الخروج مع زوجها وتخلت عن دارها الحبيبة، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن، ونـاءت بـأحمال الشيخوخة والثكل والاضطهاد... تذوق مع الرسول وقومه أهوال الحصار الجائر.. وتكافح الوهن الذي أخذ يدب إلى جسدها منذ جاوزت الستين. متشبثة بالحياة في نضال رائع.. كيما تظل إلى جانب بطلها في معركته الفذة، التي يلقى فيها بقلة مؤمنة عزلاء، جبروت الوثنية العريقة المتأصلة، وجموع القرشيين ذوي العدد والعدة والمال...

ولكن إذا لم يكن الوفاء من السيدة خديجة فممن يكون؟ وهي التي آزرت زوجها في حياته مؤازرة الصدق والإخلاص وقد ظل يذكرها ﷺ، في كل مناسبة ولا ينساها أبداً.

ثم فشل الحصار أمام ذلك الإيمان الراسخ الصامد وآب الزوجان إلى دارهما الحبيبة في مكة المكرمة، ولكن الزوجة الوفية كانت قد أجهدها الإعياء، واستنفد الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة في عامها الخامس والستين.. ورقدت هناك ثلاثة أيام وزوجها الرسول لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار، حتى أسلمت روحها الزكية إلى خالقها راضية مرضية بين يدي الرجل الذي أحبته وصدقته وآمنت به.

---

(١) الجذع: الصغير.

وكان النبي ﷺ يهون عليها سكرات الموت ويبشّرها بما أعده الله لها من نعيم، وحولها بناتها يحطن بفراشها ويودعنها قبل الرحيل.

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث حُمِلت سيدة نساء قريش وأم المؤمنين الكبرى إلى أرض الحجون حيث أضجعها الرسول ﷺ بيديه الكريمتين في قبرها، ثم ودعها وآب إلى بيته محزوناً وصابراً على البلاء المبين.

قال ابن اسحق: «فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام».

وبلغت متاعبه أقصى مداها في عام موت خديجة الذي سُمي «عام الحزن».

وخُيلَ إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر.

فلم تكد تمضي خديجة.. وأمين الوحي جبريل يرعى الرسول غادياً رائحاً يذود عنه اليأس والإعياء. والسابقون الأولون من المؤمنين يفتدونه بالمُهج والأرواح، ويرون الاستشهاد في سبيل دعوته مجداً وانتصاراً.

لم تمت «خديجة»... إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت مكة إلى أطراف الحجاز وحملها المهاجرون إلى الحبشة.

وفي الموسم نفسه، رجال من يثرب يَفِدون إلى مكة ثم لم يلبثوا أن بايعوا النبي ﷺ، ويعودوا فيبعثوا المدينة كلها لنصرته...

وكانت أم المؤمنين رضي الله عنها تواقة لأن ترى الدعوة الإسلامية ناجحة كل النجاح. فقد قالت لابنتها أم كلثوم قبل أن تلفظ أنفاسها:

ليت الأجل يمهلني حتى تنجلي المحنة. فأموت قريرة العين راضية.

فأجابتها أم كلثوم: لا بأس عليك يا أماه.. ثم خانها الجلد وخنقتها العبرات.

فاستطردت تقول: «أي وربِّ لا بأس عليّ يا ابنتي ما من امرأة من قريش ذاقت ما ذقت من نعيم».

«بل ما من امرأة في هذه الدنيا نالت مثل الذي نلت من مجد، حسبي من

دنياي أني زوجة الحبيب المصطفى، وحسبي من آخرتي أنني المؤمنة الأولى، وأني أم المؤمنين».

ثم أسبلت عينيها وهمست:

«اللهم إني لا أحصى ثناء عليك، اللهم إني لا أكره لقاءك ولكني أطمع في مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت عليّ»، ثم فاضت روحها إلى بارئها.

وتركت الراحلة من بعدها، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول، ﷺ، وملء التاريخ الإسلامي.

نسب أمنا الكبرى... السيدة خديجة وفطرة التدين

أُمنا الكبرى السيدة خديجة قُرشية أباً وأماً. فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم حبيب بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.

ويعقب الأستاذ العقاد على ذلك النسب المفطور على التدين.. فيقول في كتابه «فاطمة الزهراء»:

«ولدت السيدة خديجة لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل، والسيادة، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبي وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية. فأبوها خويلد هو الذي نازع «تُبَعاً» الآخر حين أراد أن يحتمل الركن[1] معه إلى اليمن، فتصدى له ولم يرهب بأسه، غيرة على

(١) الحجر الأسود.

هذا المنسك من مناسك دينه. وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبي عليه الصلاة والسلام عند مفاجأته بالوحي ما أزعجها. فركبت إلى ورقة سائلة لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود؛ ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها إذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون في أمرهم إلى كاهن أو كنيسة. وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحي إليه الشك في عبادة الأصنام، وتجنح به إلى البحث والمراجعة، عسى أن يهتدي إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة، ويُنسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أُمية بن أبي الصلت، ويُروى في كتب السيرة أنه استغرب على السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له، وقال لها إنه السفير بين الله وأنبيائه، وأن الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به، ولا يتسمى باسمه.

«وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة لا يغنينا أن نستقصيها لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بني عم السيدة خديجة الأقربين. فهذا، وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن، والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة، من كان منهم على الجاهلية، أو من تحول منهم إلى النصرانية.

أُمُنا الكبرى

ملء الحياة على مرّ الأيام والعصور

«ولكن.. هل ماتت خديجة حقاً؟

كلا!.. وإنها لماثلة بين عيني زوجها رسول الله ﷺ، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه، وما يسري إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات... وقد ظل رسول الله، عليه الصلاة والسلام يذكرها على لسانه وقلبه ما عاش ويرحب بمن ينتهي إليها نسباً أو صداقة.

قدمت أختها هالة إلى المدينة، وسمع النبي عليه الصلاة والسلام صوتها في فناء بيته، وكان يشبه صوت الراحلة خديجة، فهش لها رسول الله، ﷺ، وهتف بصوت خافق القلب:

اللهمّ هالة.

فلم تتمالك السيدة عائشة رضي الله عنها أن تكتم غيرتها منها، فقالت:

«ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، أبدلك الله خيراً منها».

فتغير وجه النبي عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضباً:

«والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

فلم يسع السيدة عائشة إلا أن أمسكت وهي تقول: «والله لا أذكرها بعدها أبداً».

وقالت له يوماً، وقد اشتدت غيرتها، لما ألفته لا ينقطع عن ذكر خديجة ويكثر الثناء عليها:

«كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة».

فرد عليهاﷺ: «إنها كانت وكانت. . . وكان لي منها الولد».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كان رسول الله ﷺ، إذا أتي بالشيء يقول: «إذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة» أو يقول: «إذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت تحب خديجة».

فلماذا حظيت أُمنا الكبرى السيدة خديجة، بهذه المنزلة من قلب الحبيب مُحمد ﷺ؟.

يقول العقاد رحمه الله[1]: «لم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدري ما تصنع، بل وجد إلى جانبه قلباً كريماً، وروحاً عظيماً، وسكناً تهدأ عنده جائشة ضميره، وتطمئن إليه خشية فؤاده.

ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن إليها حنكة السن، وحنان

---

(١) كتاب فاطمة الزهراء.

الأمومة؛ ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة؟، وما أمانة الحق والفضيلة؟، وما عاقبة الصبر على العرواء التي تندك لها عزائم، وتطيش لها أحلام، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفء لها من بني آدم وحواء.

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان، خليق على قلّته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش.

ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله، ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة في طلعتها، لضمن لها أن تتبوّأ مقام السيادة بين نساء العالمين.

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختتم أيامه، وظل يتفقدها، ويتفقد مواطن ذكراها أعواماً بعد أعوام.

إن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصي في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم، فما من شهادة لإنسانة هي أصدق من دوام الوفاء لها في قلب إنسان عظيم».

ويقول الكاتب الفرنسي «اتنيه دينيه» في كتابه رسول الله: «كان لخديجة في نفس الرسول جاذبية قوية لطيفة فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها، ورغم أنه كان في ريعان شبابه فإنه لم يقبل الزواج بأخرى مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغري به. وإذا كانت قد فارقته فإن ذكراها دائماً كانت على لسانه، وكانت عائشة التي صارت زوج الرسول المفضلة تجد لذع الغيرة وتحس به في قسوة.

ورغم جمال عائشة، وما تحلت به الأخريات من جمال وفطنة، فإنه كان دائماً يفضّل عليهن خديجة ويعدها واحدة من أربع نساء أكمل من وجد على ظهر البسيطة. أما الثلاثة الأخريات فهن آسية امرأة فرعون التي أنقذت موسى، ومريم أم عيسى، وفاطمة الزهراء بنت محمد من خديجة.

وأثر خديجة في حياة الرسول، لا يماثله إلا أثرها في حياة الإسلام وتاريخه».

قال ابن اسحق: «كان رسول الله ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيبه له فيحزنه ذلك، إلا فرّج الله بخديجة رضي الله عنها، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضي الله عنها.

وتعقب الدكتورة «بنت الشاطىء» في كتابها القيم «نساء النبي» على ذلك بقولها:

«لقد كانت خديجة ملء حياة الرسول حية وميتة، وما جاوزت «عائشة» الحق حين قالت لزوجها الرسول عليه السلام: «كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها».

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟!

هل كان لأنثى غيرها أن تهيء له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها ـ في إيثار نادر ـ ما أعده لتلقي رسالة السماء؟!

هل كان لزوجة عداها، أن تستقبل دعوته التاريخية من غار «حراء» بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف فياض قوي، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبداً.

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانب رجلها في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟

كلا... بل هي وحدها ـ ولا امرأة إلا مثلها ـ التي أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة، وتكون لليتيم أماً وللبطل ملهمة، وللمناضل ملاذاً وسكناً، وللنبي المبعوث نبع ثقة وطمأنينة وسلام».

تكريم الله سبحانه وتعالى للسيدة خديجة

روى البخاري قال، أتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فقال: «يا محمد هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتت فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»[1].

(١) من قصب: أي فضة ويقال اللؤلؤ المجوف. لا صخب: فيه صمت وهدوء.

وفي رواية، أن جبريل قال: «يا مُحمد، اقرىء خديجة من ربها السلام»، فقال النبي ﷺ: «يا خديجة هذا جبريل يقرئك من ربك السلام».

قالت خديجة: «الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام».

وعن يونس بن أبي اسحاق عن أبيه قال:

قالت فاطمة عليها السلام: «والله يا رسول الله لا ينفعني عيشي حتى تسأل جبريل عن أُمي»، فسأله فقال: «هي بين مريم وسارة في الجنة» رضي الله عنهن[1].

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن جعفر قال:

سمعت عليا رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران»[2].

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خط رسول الله ﷺ، أربعة خطوط وقال: «أتدرون ما هذا؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ:

«أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ﷺ، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون».

سلام الله على أمنا الكبرى، السيدة خديجة أكمل النساء، وخير نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنّة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه ابن السدي.

(٢) رواه الترمذي.

الفصل الخامس

أفضل النساء البضعة المحمدية الطاهرة، البتول، زهرة المصطفى خير نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنة

السيدة فاطمة الزهراء

زوج الإمام عليّ

وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة رضوان الله عليهم أجمعين

قال تعالى: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الأحزاب: ٣٣).

عاد النبي ﷺ فاطمة وهي مريضة فقال لها: «كيف تجدينك؟ قالت: إني وجعة، وإنه ليزيد في حالي طعام آكله، قال: «يا بُنية: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟» قالت: فأين مريم؟ قال: «تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة» رواه أبو العباس.

مولد الزهراء رضي الله عنها

أقبل العام العاشر من زواج الأمين ﷺ بالسيدة خديجة وهما يستعدان لاستقبال ثمرة حمل مبارك، وكانت تلك الثمرة الطيبة ابنتهما فاطمة الزهراء التي شاء الله أن تكون من سلالتها الطاهرة ذرية رسوله الأكرم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الكرام البررة.

كان ذلك الميلاد السعيد قبل المبعث بسنوات خمس، يوم الجمعة، العشرين من جمادى الآخرة. وسماها النبي ﷺ بإلهام من الله تعالى «فاطمة» لأن الله فطمها عن النار. فقد روى الديلمي والحاكم عن علي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إنما سُمّيت فاطمة لأن الله فطمها وحجبها عن النار».

وسُمّيت بالزهراء لأنها زهرة المصطفى ﷺ.

ولقِّبت «بالبتول» لأن الله تعالى زادها عن النساء حُسناً وفضلاً وشرفاً. ولا نظير لها في ذلك بين نساء الأمة، ولانقطاعها إلى الله سبحانه وتعالى.

وكُنِّيت «بأم أبيها» كما رواه الطبراني عن ابن المدايني. ولفاطمة رضي الله عنها تسعة أسماء: فاطمة، والمباركة، والزكية، والصدّيقة، والراضية، والمرضية، والمحدّثة، والزهراء، والطاهرة، وكان يطلق عليها أم النبي أو أم أبيها كما تقدم.

ولم يكن اسم فاطمة غريباً عند العرب فقد كانت أم الإمام علي فاطمة بنت أسد، وهناك فاطمة بنت الحمزة أسد الله، وفاطمة بنت عقبة.

ولقد بلغ من حب الرسول ﷺ لابنته فاطمة أنه كان يكنيها (بأم أبيها).

فقد وُلد، ﷺ يتيم الأب، ولحقت والدته بوالده فعاش مرارة اليتم، فتعلّق قلبه حينذاك بفاطمة بنت أسد زوجة عمه أبو طالب الذي كفله ورباه بعد موت جده عبد المطلب، وكان يناديها:

يا أُماه، وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسُمع وهو يقول: ماتت أمي!

ورُزق ﷺ «بفاطمة»، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد، وتسلى بإبنته عنها ولهذا كناها «أم أبيها».

وكلما كان الإنسان من ذوي المنزلة والمكانة تعددت أسماؤه، ويقول النحويـون: إن الأسماء ثلاثة أنواع:

١ ـ اسم وهو: ما يسمى به الإنسان عند ولادته (فاطمة).

٢ ـ ولقب وهو: ما يشعر بمدح أو ذم (الزهراء ـ البتول) وكلاهما مدح.

٣ـ وكُنْية وهي: ما بُدئت بأب أو أم (أم أبيها).

كان ذلك الميلاد السعيد قبل المبعث بخمس سنوات كما علمنا، وكان بشير أمن وسلام للقرشيين جميعاً.. ذلك بأن قريشاً كانت تبني الكعبة.. وقـد قامت الخصـومة بين القبائل وتنافسوا في رفع الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبـة واشتدت الخصـومة حتى أنذرت بحرب شعواء. ودام ذلك الخصام أربع ليـال أو خمساً.. حتى قـام فيهم أسنّ قـريش يومئـذ، وهو أبـو أمية بن المغـيرة المخزومي فقـال يهدىء نفـوس الفروع المتخاصمة:

يـــا معشر قـريش لا تختلفـــوا، وليحكم بينكم أول قـادم عليكم فقبلوا ذلـــك الاقتراح.

في تلك اللحظة دخل عليهم الأمين محمد بن عبد الله الهاشمي فهتفوا جميعاً فرحين بمقدمه:

هذا الصادق الأمين رضينا بحكمه.

وعـرضوا عليـه الخلاف فهـداه الله إلى الرأي الصائب الذي حسم الخـلاف، ومنع قيام الحرب.

خلع الأمين رداءه، وفرشه على الأرض، ثم وضع الحجر الشريف عـلى ردائه، وقال لزعماء القبائل:

ليحمل كل منكم طـرفاً من هـذا الرداء ففعلوا حتى إذا بلغـوا به مكـان الحجر أخذه بيده الشريفـة ووضعه في مـوضعه. وكـان الأمين محمـد يومئـذ في سن الخامسـة والثلاثين، وعندما عاد الأمين من البيت الحرام إلى داره بُشر بمولد ابنته الطاهرة.

وقد نشأت الوليدة المباركة في عطف من أبويها الكريمين وتدليل من أخواتها البنات الثلاث. . زينب الكبرى ورقية وأم كلثوم، وخاصة كبراهن زينب التي احتضنتها معاونة لأمها الجليلة في تربيتها.

ورأت السيدة خديجة في وليدتها فاطمة الزهراء صورة من أبيها العظيم، فسرّها ذلك الشبه ورأته بركة من بركات الله عليها، وعلى آل البيت الكرام.

وشاء الله أن يموت شقيقاها القاسم وعبد الله طفلين قبل المبعث أو في مستهله. وكان الأمين قد ضم إليه ابن عمه علي بن أبي طالب ليخفف عن كاهل عمه بعض النفقة إذ كان أبو طالب كثير العيال قليل المال.

وكان علي بن أبي طالب يكبر فاطمة بنحو أربع سنوات فاتخذته أخاً، وسرّها منه أنه أول من آمن من الصبيان ودلّ بمسارعته إلى الإسلام صغيراً دون الحُلُم على عقل راشد وقلب طاهر ثابت. وظهر ذلك جلياً عندما سأله الرسول، ﷺ عما إذا كان قد استشار أباه في أمر دخوله الإسلام؟

فأجاب ونور اليقين يملأ قلبه:

«إني فكرت في الأمر فوجدت أن الله حين خلقني لم يستشر أبي، فلماذا أستشيره في أمر ديني الذي يربطني بربي».

وقال يتحدث عن نعمة ربه عليه بإسلامه وهو صبي لم يبلغ الحُلُم إذ كان في سن العاشرة حين أسلم كما رواه ابن اسحاق، قال رضي الله عنه:

سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حُلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً فمن منكم له يوم كيومي

وقد تفتح قلب الزهراء الطاهر على نور الإسلام فما كادت تميز حتى رأت ذلك النور يُشرق على العالمين بادئاً بالعشيرة الأقربين، حتى شملها وهي طفلة في مدارج الصبا.

فها هو أبوها الأكرم ﷺ يصدع بأمر ربه حين نزل عليه قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الشعراء: ٢١٤). ويخص بالنداء زهرته الحبيبة إلى قلبه: «يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئاً».

فهمست مستجيبة لندائه الصادق: لبيك يا أحب والد وأكرم داع.

وهي بذاتها فاطمة التي ذكرها، ﷺ حين جاءه أُسامة بن زيد بن حارثة ليشفع في امرأة من قريش كانت قد سرقت بعد أن أسلمت. فغضب رسول الله ﷺ وسأله معاتباً: أتشفع في حدٍ من حدود الله يا أُسامة؟!

والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها.

وفي رواية: «لا تكلمني يا أُسامة فإن الحدود إذا انتهت إليّ فليس لها مترك، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها».

ولهذا قيل «إن الحدود إذا انتهت إلى السلطان وجب إقامة الحد».

وما سبق يدل على شدة تعلّقه، ﷺ بابنته الحبيبة فاطمة.

زواجها بالإمام علي

لما بلغت الزهراء رضي الله عنها، سن الزواج خطبها أبو بكر وعمر فأحسن، ﷺ ردهما وقال لكل منهما: أنتظر بها القضاء، أو قال:

«إنها صغيرة»، كما جاء في سُنن النسائي.

وجاء في أسد الغابة، أنه لما خطبها أبو بكر وعمر وردهما رسول الله ﷺ، رداً جميلاً، قال عمر: أنت لها يا علي.

قال عمر: أنت لها يا علي.

فقال علي: مالي من شيء إلا درعي أرهنها.

فزوجه رسول الله ﷺ فاطمة، فلما بلغ ذلك الزهراء بكت فخشي المصطفى أن يكون بكاؤها أن علياً لا مال له.

فقال: «ما يبكيك؟ ما ألومك في نفسي وقد أحببت لكِ خير أهلي، والذي نفسي بيده لقد زوجتك سيداً في الدنيا وإنه في الآخرة لمن المصلحين».

وفي رواية أخرى قال لها: «يا فاطمة إن علياً يذكرك» وكان من عادته ﷺ أن يستشير كل بنت من بناته في تزويجها كما جاء في مسند الإمام أحمد فإن سكتت أمضى الزواج.

وكان ﷺ يقول في زواج البكر «إذنها صمتها».

ويعلق الأستاذ العقاد على بكاء السيدة الزهراء، فيقول في روعة ظاهرة: «فإذا

كان للخبر الذي جاء في أنساب الأشراف للبلاد ذي أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبي ﷺ قد وجد الزهراء باكية وليس في ذلك غرابة، لأننا لا نتخيل فتاة في مثل موقفها لا يُبكيها ما تثيره في نفسها ذكرى أُمها ووداع بيت أبيها. وقد فارقتها أُمها وهي صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطافها لها في رخائها وعسرها، ثم يكون يوم الفصال في غربة من الأم ومن البيت الذي لزمتها فيه ومن البلد الذي يحتويه.

فإن جهدنا أن نتخيل أن فتاة لا تبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات، وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها في كنف أبيها ومعيشتها في غير كنفه فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين، وآسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين.

ومثل النبي ﷺ الذي كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد، لن يفوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم ولن يسكت عنه إلا عامداً عالماً بما يلعجه في النفس من الحزن والشجن.

فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام: «مالك تبكين يا فاطمة، فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأولهم سِلماً».

وفي رواية أخرى أنه بعد دخول الرسول ﷺ بزوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فكر علي كرم الله وجهه في أن يخطب فاطمة رضي الله عنها، لكنه لم يكن في يده مال فأحجم عن مخاطبة أبيها، ﷺ، وزاد إحجامه حين بلغه أنه ﷺ ردّ كلاً من أبي بكر وعمر في رفق بالغ.

ولكن أحباب علي كرّم الله وجهه ألحوا عليه في خطبتها.

فأخذ طريقه إلى الرسول ﷺ، حتى إذا جاءه حيّاه بتحية الإسلام، ثم جلس قريباً منه على استحياء لا يذكر حاجته.

وأدرك ﷺ أنه جاء لحاجة لا يجرؤ على الإفصاح عنها، فتلطف معه ليفصح عنها وسأله: «ما حاجة ابن أبي طالب؟».

أجاب بصوت خفيض وهو غاض البصر:

ذُكرت لي فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

فقال الرسول الأكرم: «مرحبا وأهلا». ثم أمسك ﷺ لا يزيد.

ولما رجع علي كرم الله وجهه إلى أصحابه سألوه عما تم.

فقال: ما أدري والله شيئاً، تحدثت إلى رسول الله، ﷺ، بالأمر، فما زاد على قوله: «مرحبا وأهلاً».

فهتفوا جميعاً: يكفيك من رسول الله إحداهما.

وفي اليوم التالي وقف غير بعيد من رسول الله ﷺ وقال بحيث يسمعه: أردت أن أخطب إلى رسول الله ابنته، فقلت والله مالي من شيء، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه.

فما راعه إلا أن التفت إليه ﷺ مترفقاً: «وهل عندك شيء؟».

أجاب: لا يا رسول الله.

لكن الرسول ﷺ، ذكر أن علياً أصاب درعاً من مغانم بدر، فعاد يسأله: «أين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟».

أجاب وقد غلبه التأثر لما لقيه من بره ﷺ ورعايته: هي عندي يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «فاعطها إياه».

فانطلق عليّ مسرعاً وجاء بالدرع، فأمره ﷺ أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها، وتقدم عثمان بن عفان فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهماً حملها عليّ ووضعها أمام الرسول ﷺ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى بلال ليشتري ببعضها طيباً وعطراً، ثم يدفع الباقي إلى زوجته أم سلمة لتشتري جهاز العروس.

وجُهِّزت العروس وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط، ووسادة من أدم[1] حشوها ليف، وإناء يُغسل فيه، وسقاء، ومنخل، ومنشفة، وقدح، ورحوين، وجربتين.

---

(١) أدم: جلد.

الإمام علي

اجتمع للإمام علي رضي الله عنه من صفات الكمال ومحمود الشمائل والخصال، وثناء الحسب، وباذخ الشرف، مع الفطرة النقية والنفس المرضية ما لم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال[1].

تحدّر من أكرم المناسب وانتمى إلى أطيب الأعراق، فأبوه أبو طالب: عظيم المشيخة من قريش، وجده عبد المطلب: أمير مكة وسيد البطحاء، ثم هو قبل ذلك من هامات بني هاشم وأعيانهم.

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ: ملح الأرض وزينة الدنيا، وحُلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم.

واختص بقرابته القريبة من رسول الله ﷺ فكان ابن عمه وزوج ابنته، وأحب عترته إليه، كما كان كاتب وحيه، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه.

أسلم على يديه صبياً، قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة، أو يخالط عقله شوْب من شرك موروث، ولازمه فتياً يافعاً في غدوه ورواحه، وسلمه وحربه، حتى تخلّق بأخلاقه، واتسم بصفاته، وفقه عنه الدين وثقف ما نزل به الروح الأمين، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم، وأحفظهم وأوعاهم، وأدقهم في الفتيا، وأقربهم إلى الصواب حتى قال فيه عمر:

لولا عليّ لهلك عمر. كما قال له: لا أبقاني الله في بلد لست بها يا أبا الحسن.

وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث، مليئة بجلائل الأمور. فعلى عهد الرسول ﷺ ناضل المشركين واليهود، فكان فارس الحلبة ومسعر الميدان، صلب النبع، جميع الفؤاد.

وفي أيام خلافته كانت له أحداث أخرى، لقي فيها ما لقي من تفرق الكلمة،

---

(١) نهج البلاغة لابن إبي حديد.

واختلاف الجماعة، وانفصام العروة، ما طوى أضلاعه على الهم والأسى، ولاع قلبه بالحزن والشجن.

وفي كل ما لقي من أحداث وأمور، وما صادف من محن وخطوب، بلى الناس وخبرهم، وتفطّن لمكاوي نفوسهم، واستشفّ ما وراء مظاهرهم فكان العالِم المجرّب الحكيم، والناقد الصيرفي البصير.

وكان لطيف الحس، نقي الجوهر، وضاء النفس، سليم الذوق، مستقيم الرأي، حسن الطريقة، سريع البديهة، حاضر الخاطر، عارفاً بمهات الأمور إصداراً وإيراداً.

بل كان كما وصفه الحسن البصري: سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، وربانّي هذه الأمة، وذا فضلها وسابقتها، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنئومة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياض مونقة، وأعلام مشرقة، ذاك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم الله وجهه».

كان إمامنا علي أصغر إخوته، وأكبر منه جعفر وعُقيل وطالب، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين، ولما أصاب القحط قريشاً، أهاب رسول الله ﷺ، بعميه حمزة والعباس أن يخففوا عن عمه أبي طالب عبء المعيشة، فأخذ النبي ﷺ عليّا، وأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وبقي عُقيل في كنف أبيه.

وفضائل الإمام علي كرّم الله وجهه في الإسلام أشهر من أن تُذكر.

شكوه مرة إلى رسول الله ﷺ فقام خطيباً وقال:

«أيها الناس لا تشكو عليّا، فوالله إنه لجيش من ذات الله». وحين آخى الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قال للإمام علي: «أنت أخي».

وحين خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك خلف الإمام علي في أهل بيته بالمدينة، فبكى كرّم الله وجهه وقال: يا رسول الله تخلفني على النساء والصبيان!

وكان كرّم الله وجهه يود أن يقاتل معه أعداء الله.

فطيّب الرسول، ﷺ، خاطره وقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

وقد سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: أي الناس أحب إلى رسول الله ﷺ؟
قالت: فاطمة.
فقيل: من الرجال؟
قالت: زوجها، كان كما علمت صوّاماً قواماً.

وفي غزوة خيبر قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

«لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله»، فتاقت نفس عمر إلى ذلك حتى إنه رضي الله عنه قال: ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم.

فقال النبي ﷺ: «أدعو لي عليّاً».

فأتاه وبه رمد، فوضع ﷺ ريقه على عينيه فشُفيتا، ودفع الراية إليه ففتح الله عليه.

وكانت له، كرّم الله وجهه في خيبر كرامة كبيرة فقد استعصى على المسلمين آخر حصن، فاشتد القتال حتى كسروا للإمام دُرْقته، فخلع باب الحصن وترّس به عن نفسه، وقاتل حتى فتح الله الحصن على يديه، فاجتمع عشرة وقيل أربعون، ليرفعوا باب الحصن فثقل عليهم فسألوه: كيف حمله هو بيد وقاتل باليد الثانية؟

فابتسم كرّم الله وجهه وقال: إنما هو عون الله ومدده.

وروى صاحب الأمالي: أن علياً جلس في المسجد إلى عمر رضي الله عنهما وعنده ناس، فلما قام عرّض واحد بذكره ونسبه إلى التيه والعُجْب، فقال عُمر: حق لمثله أن يتيه، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى الأمة وذو سابقتها وذو شرفها.

وكان عمر رضي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، يعتد ويعتز بفتوى الإمام علي.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ العلم عن الإمام علي وعُرِفَ ابن عباس بتبحره في العلم حتى سُمي البحر، كما سُمي حبر الأمة، وترجمان القرآن.

ولما سُئل ابن عباس: ما علمك إلى علم ابن عمك؟
قال: كقطرة إلى جانب البحر المحيط.

كما قال: لقد أُعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله لقد شارككم في العُشر العاشر.

وقد دعا لـه رسول الله، ﷺ أن يـرزقه الله الفهم، فكـان رضي الله عنه غـزير العلم، عظيم الفهم كما تقدم، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً نذكر منها واحـدة يرويها لنا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: ترك الإمام علي بن أبي طالب، كـرّم الله وجهه تسـع كلمات قـطع الأطماع عن الالتحـاق بـواحـدة منهن: ثـلاث في المناجاة، وثلاث في العلم، وثلاث في الأدب:

فأما التي في المناجاة فهي قوله: كفـاني عزاً أن تكـون لي رباً. وكفى بي فخراً أن أكون لك عبداً. أنت لي كما أحب، فوفقني لما تحب.

وأما التي في العلم فهي قوله: المرء مخبوء تحت لسانه. تكلموا تُعرفوا. مـا ضاع امرؤ عرف قدره.

وأما التي في الأدب فهي قولـه: أنعم على من شئت تكن أمـيره. واستغن عمن شئت تكن نظيره. واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

وقد اجتمع للإمام علي وبنيه السبطين الحَسن والحُسين كل صفات المجد في بني هاشم إلى جانب القوة الجسدية ولا تنسى أن الرسول ﷺ قال:

«لو ولد الناس كلهم أبو طالب لكانوا شجعانا».

وإلى جانب الصفات المتقدمة، خص الله إمامنا عليّ بنفح إلهي، وإلهـام رباني، فتفجرت عيون العلم والحكمة من قلبه وجرت على لسانه في بلاغة تلي بلاغة الرسـول ﷺ.

حفل الزواج

قيل إن عقد الزواج تمّ في شهر رمضان من السنة الثـانية للهجـرة. وكان عُمْـر فاطمة إذ ذاك خمس عشرة سنة، وقيـل ست عشرة، وقيل ثـماني عشرة سنة، وتـزوجها عليّ وسنّه إحدى وعشرين سنة.

وأخرج الخطيب البغدادي في كتابه التلخيص عن أنس قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ غشيـه الوحي. فلما سُرّي عنـه قال لي: أتـدري ما جـاء بـه جـبريـل من عنـد

صاحب العرش، إن الله أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ، انطلق فادعُ لي أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وعدة من الأنصار.

قال أنس: فانطلقت، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع سلطانه، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، ونورهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ.

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مُفترضاً، وحكماً عادلاً، وخيراً جامعاً، أوشج بها الأرحام، وألزمها الأنام. فقال عز وجل: «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً» (الفرقان: ٥٤). «لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» (الرعد: ٣٩).

ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ وأُشهدكم أني زوّجت فاطمة من عليّ على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك على السُّنّة القائمة، والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمن الأمة، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».

قال أنس: وكان عليّ رضي الله عنه غائباً في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها، ثم أمر لنا بطبق فيه تمر، فوُضِع بين أيدينا، فقال: «انتبهوا». فبينما نحن كذلك إذ أقبل عليّ، فتبسّم إليه رسول الله ﷺ وقال: «يا عليّ إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة وإني زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة».

فقال عليّ: رضيت يا رسول الله، ثم إن علياً خرّ ساجداً شكراً لله، فلما رفع رأسه قال الرسول، ﷺ: «بارك الله لكما وعليكما وجمع شملكما وأخرج منكما الكثير الطيب».

قال أنس: والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب، وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما، أن علياً أتى النبي، ﷺ فسأل عن موعد الزفاف فقال: «الليلة إن شاء الله»، ثم دعا ثلاثاً، فقال:

«زوجت ابنتي ابن عمي»، ثم قال: «وأنا أُحب أن يكون سُنّة أُمتي الطعام عند النكاح. فخذ شاة وأربعة أمداد، واجعل قصعة[1]. اجمع عليها المهاجرين والأنصار،

---

(١) قصعة: مائدة

فـإذا فرغت فأتني». ففعل، ثم أتـاه فوضعهـا بين يـديه وبـارك[1]، وقال ﷺ: «أدخل الناس رفة[2] بعد رفة»، فجعلوا يـردون كلما فرغت رِفـة وردت أخرى حتى فـرغوا من الطعام، ثم عمد رسول الله ﷺ إلى ما فضل منها، فوضعها بين يـديه وبـارك، وقال: «احملها إلى أمهاتك[3] وقل لهن: كلن واطعمن من غشيكن»، ثم قام ﷺ، فدخل على النساء فقال: «زوجت ابنتي ابن عمي، وقد علمتن منزلتها مني، وأنا دافعها إليه فدونكن». فقمن فطيبنها من طيبهن، وألبسنها من ثيابهن وحُليهن.

ثم إن النساء ذهبن، وتخلفت أسماء بنت عُميس زوجـة أبي بكر الصـديق رضي الله عنهما.

فقال، ﷺ: «على رِسْلِك من أنت؟».

قالت: أنا التي أحرس ابنتك؛ إن الفتـاة ليلة زفافهـا لا بد لهـا من امرأة قـريبة منها إن عرضت لها حاجة، أو أرادت أمراً أفضت إليها به.

قال: «فإني أسـأل الله أن يحرسـكِ من بـين يـديـك ومن خلفـكِ، وعن يمينـك وشمالك من الشيطان الرجيم». ثم خرج بفاطمة.

وتكمـل أم أيمن رواية زفـاف كريمـة المصطفى ﷺ، فتقول، إن النبي ﷺ قال لعليّ: «إذا أتيت بها فلا تقربها حتى آتيك».

فلما أتى بها قعدا جنباً في ناحية البيت[4]، وكان الـرسول عليـه السلام قـد ذهب لصلاة العشاء، فلما فرغ من الصلاة، جاء رسول الله، ﷺ فـدعا بـإناء فيـه ماء فـأتى به، فوضع يده فيه وقرأ بعض آي الذكر الحكيم[5]، ثم دعا عليّاً فنضح من ذلك المـاء على كتفيه وصدره وذراعيه، ثم دعا فاطمة فأقبلت تتعثر في ثوبهـا حياء من رسـول الله ففعل بها مثل ذلك.

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كـما يليق به، وجـاء حمزة بن عبـد المطلب بشـارفين فنحرهما وأطعم الناس بالمدينة، ولما تم الحفل انصرف القوم مهنئين.

---

(١) بارك: أي قال، اللهم بارك فيها.

(٢) رفة: جماعة قليلة.

(٣) أمهاتك: يقصد أمهات المؤمنين، أزواج النبي ﷺ.

(٤) أي جلسا متجاورين.

(٥) يستحب قراءة قل هو الله أحد والمعوذتين.

المسكن الجديد وعيشة الكفاف

«انتظمت الحياة في المسكن الجديد الذي آوى إلى ظل النبي ﷺ، على مثال من حياة النبي ﷺ في بيته: عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته إذ كان رزق عليّ من وظيفة الجندي، ووظيفته من فيء الجهاد، وقد كان قليلاً في حياة النبي ﷺ، وهو مقصور على الجزيرة العربية، فكان نصيب علي منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم وكلما رُزِق وليداً جاءته حصته على قدر شأن كل أب من المسلمين[1]».

ولقد زار الرسول ﷺ ابنته الزهراء يوماً، فوجدها تطحن الرحى، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال: «تجرّعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

وهذه لا ريب تربية عالية، وقد ربّى الله تعالى بها أمهات المؤمنين؛ نساء النبي ﷺ بقوله تعالى: «يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تُردن الله ورسوله فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً (الأحزاب: ٢٩).

وقد اخترن رضي الله عنهن الصبر، أسوة بصبره ﷺ على تلك المعيشة.

ويعلق الأستاذ العقاد رحمه الله على تخييره ﷺ لزوجاته بين الصبر على عيشة الكفاف والتسريح لينعمن بالحياة الدنيا فيقول في روعة ظاهرة:

«الله أكبر، مثل محمد يعلو على إشفاق المشفقين، ومن كان في قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسداً، ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإسفاف، فذلك هو الإعظام، وذلك هو المرتقى الذي قيل فيه وبُعيد بلوغ هاتيك جداً، تلك عليا مراتب الأنبياء. إن محمداً يبكي لأنه يرى أحب الناس إليه وأقربهم منه جائعة مرهقة (يقصد السيدة الزهراء رضي الله عنها)، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها، وهو يملك كل شيء في الجزيرة العربية، ويسأل السائلون من زعانفة المُعطلين والمتعصبين أعداء كل دين: ما برهان النبوة عند مُحمد؟ الله أكبر، إن لم يكن هذا برهان النبوة، فبرهان أي شيء يكون؟!»

ولذلك قال العارفون بالله: ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك.

(١) فاطمة الزهراء للعقاد.

وإلى هذا يشير الإمام البوصيري في بردته المباركة فيقول:

وشـد من سغب[1] أحشـاءه وطـوى ... تحت الحجارة كشحا[2] مُترف الأدم[3]
وراودتـه الجبـال الشمُّ مـن ذهـب ... عـن نفسـه فـأراها أيَّما شمـم
وأكـدت زهـده فيـها ضرورتـه ... إن الضرورة لا تعـدو عـلى العصـم
وكيف تـدعـو إلى الدنيا ضرورة من ... لـولاه لم تخـرج الـدنيا من العـدم

وقد اختلفت حياة السيدة الزهراء عن حياة أخواتها الثلاث، اللواتي أتيحت لهن عيشة الثراء، فإن السيدة زينب رضي الله عنها كانت متزوجة من العاص بن الربيع، وكان تاجراً ذا مال فعاشت في سعة، أما السيدتان رقية وأم كلثوم فكانتا في بيت أبي لهب مع ابنيه عُتبة وعُتيبه، وكان أبو لهب ذا مال.

وعندما فارقا زوجيهما، تزوجتا واحدة بعد الأخرى من عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان واسع الثراء فعاشتا في بسطة من العيش.

وقد احتملت السيدة الزهراء مع زوجها الإمام علي عيشة الشظف، فكانت تخدم بيتها بيدها، وجاء في وصف العبء الذي وقع عليها في تلك الخدمة: أنها جرّت بالرحى حتى أثرّت في يدها، وحملت القربة حتى أثّرت في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرّت ملابسها.

ومع عيشة الكُفاف التي صبرت عليها السيدة الزهراء، فإنها كانت كريمة تجود بما عندها، وتؤثر المحتاجين على نفسها، ابتغاء مرضاة الله حتى نزل فيها وفي زوجها قول الحق تبارك وتعالى: «يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً. ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً» (الإنسان: من ٧ ـ ٩) نزل بها الأمين جبريل عليه السلام وقال: خذها يا مُحمد هنأك الله في أهل بيتك.

---

(١) السغب: الجوع.
(٢) الكشح: البطن.
(٣) الأدم: الجلد.

الزهراء في الحياة العامة

قلنا إن مولد السيدة الزهراء كان قبل البعثة بخمس سنوات، وقد شاركت أسرتها في الحصار في شِعْب أبي طالب، ذلك الحصار الجائر الذي دام ثلاث سنوات، كما هاجرت مع أختها أم كلثوم إلى المدينة المنورة حين أرسل إليهما أبوهما رسول الله، ﷺ مولاه زيداً بن حارثة.

وقد صحبت أباها، ﷺ في غزوة أُحُد، ورؤيت هناك بين الجرحى تضمد جراحهم، وتقوم على خدمتهم وتسقي الشهداء وهم يحتضرون لا تبغي بذلك إلا رضاء الله ورسوله.

وقد شهدت السيدة الزهراء فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، حين سيّر أبوها، ﷺ، جيشاً من عشرة الآف مقاتل ليأخذ بحقه من أهلها الظالمين الذين أكرهوه وأصحابه على الهجرة منها، ونقضوا صلح الحديبية.

وعسكر الجيش النبوي الظافر في مر الظهران» انتظاراً للمعركة الفاصلة، فإذا بقائد المشركين أبو سفيان بن حرب يسعى إلى رسول الله، ﷺ، ويلقي السلم ويؤمن بالدعوة المحمدية، وكانت الراية مع سعد بن عبادة الأنصاري فقال رسول الله ﷺ للإمام علي: «أدركه، فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها».

وصدر في فتح مكة الأمر النبوي للصحابة الفاتحين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واستثني من هذا الأمر نفراً سماهم بأسمائهم وفيهم الحويرث بن منقذ الذي نخس راحلة الزهراء وهي مهاجرة من مكة، فألقت بها على الأرض، وشاء الله أن يقتله زوجها علي بن أبي طالب ليكون أخْذ ثارها على يده لا على يد غيره، فذلك أدخل لسرورها، وقد سجد رسول الله ﷺ، شكراً لله على قتل ذلك النذل.

«وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (الإسراء: ٨١).

وتوارت منه الخفافيش في ليل الكفر، حتى فضحَ الصبح فحمة الدُجى، وبهرت الشمس مواطن الظلام، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وقد لحظ الإمام علي كرّم الله وجهه. أن زوجته الزهراء لم تنم ليلتها بل ظلت ساهرة يقظى تنتشي فرحاً بفتح مكة، فقال وهو يتهيأ لصلاة الصبح في البيت العتيق

بعد أن طهره رسول الله، ﷺ من الأوثان التي كانت حوله أما نِمتِ يا أُمَ الحسن؟
أجابته وهي فرحة بالنصر:

بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة، وأنا كاملة اليقظة، وكأني أُشفق إذا نمت أن يكون الأمر كله حُلماً في الكرى.

ثم قامت تصلي ثم نامت بعد سهر طويل.

ودام مقام السيدة الزهراء، بمكة المكرمة شهرين وبعض الشهر وزارت قبر أمها خديجة الكبرى.

وزاد في سرور الزهراء أن تسمع بأذنيها ضجيج الآف من المسلمين الفاتحين وهم يهتفون:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

ثم آوى الرسول، ﷺ إلى قبته حيث كانت تنتظره ابنته الزهراء، واستراح قليلاً ثم جاء إلى البيت الحرام وسط الجموع الزاحفة فطاف به سبعاً على راحلته، فلما قضى طوافه فُتحت له الكعبة ثم وقف على بابها، فخطب في الناس خطبة الفتح ثم قال:

«يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟».
قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.
قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

يا للسماحة، ويا للخلق العظيم، عفوٌ عند المقدرة، على أعدائه الآثمين الفجرة، الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم بغير ذنب إلا أن يقول ربنا الله.

أما عن العطف الذي حبا به الرسول الأكرم ﷺ، السيدة الزهراء وزوجها، فحدّث ولا حرج فقد كان يزورهما عند صلاة الصبح، كل يوم وفي الباب يقول: «السلام عليكم أهل البيت» ويقول: «الصلاة ثلاث مرات، «إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الأحزاب: ٣٣).

وكان ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يثني بفاطمة رضي الله عنها، ثم يأتي بيوت نسائه.

أبناء الزهراء آل البيت الكرام

رزق الله السيدة الزهراء وزوجها أطيب ذرية من الذكور والإناث، وذلك ببركة دعائه، ﷺ لهما.

أما الذكور فهم السبطين : الحسن، والحسين، ثم المُحسن وقد مات المُحسن صغيراً، وحفظ الله السبطين رضي الله عنهما، حتى قاما بدورهما في تاريخ الإسلام، وصان سبحانه نسل رسول الله، ﷺ في الحياة، وأما الإناث: فزينب وأم كلثوم.

وأسماء الحَسن، والحُسين، والمحسن من اختياره، ﷺ.

أما زينب[1] وأم كلثوم[2] فسُمِّيتا باسم خالتيهما إحياء لذكرى الراحلتين العزيزتين اللتين فقدتهما الزهراء رضي الله عنهم أجمعين، دون أن تنسى عطفهما عليها حين كانت طفلة في مدارج الصبا وكان ﷺ يغمر سبطيه الحسن والحسين بعطفه الكبير وقال فيهما: «إنهما إبناي وابنا بنتي، اللهم إني أُحبهما وأُحب من يحبهما».

ولذلك كان كل منهما يهتف بجده، ﷺ ويقول: يا أبت، وإذا هتف الحسن بأبيه عليّ قال: يا أبا الحُسين، وإذا هتف الحُسين بأبيه عليّ قال: يا أبا الحسن. ولما انتقل جدهما، ﷺ، إلى الرفيق الأعلى كانا يهتفان بأبيهما عليّ: يا أبت.

وكانت السيدة الزهراء تهتف بابنيها فتقول مرة: يا حسنان، ومرة أخرى: يا حُسينان من باب المزج بين إسميهما.

وكان الطفل منهما يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر رسول الله، ﷺ، فيرقصه جده.

وقد يلفهما في بُرْد واحد ويقول: «أنا وأنتما يوم القيامة في مكان واحد».

ورُوي عنه ﷺ أنه قال عن الحسن والحسين: «إنهما سيدا شباب أهل الجنة».
وكان الإمام عليّ يضن بهما في الحرب ويقول: إني أخشى أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله.

---

(١) زينب: تزوجت من ابن عمها عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم.
(٢) أم كلثوم: تزوجت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما تأيمت بعد وفاته تزوجت من ابن عمها عون بن جعفر رضي الله عنهم.

أما الصحابة الكرام فقد أجلّوا الحسن والحسين كل الإجلال حتى كانوا يقولون لكل منها: يا ابن المصطفى.

ومن هنا يتبين لنا أن أهل البيت المنسوبون للرسول الأكرم ﷺ هم: السيدة فاطمة الزهراء، كريمة المصطفى ﷺ، وزوجها الإمام علي، وولديه من الزهراء: السبطين الحسن والحسين ومن ذريتهما كان نسله الشريف ﷺ: «إنما هما ابناي، وابنا ابنتي» وشرف ذرية السبطين، الحسن والحسين رضي الله عنهما عام لا فرق فيه بين أولاد ذكورهما أو أولاد إناثهما، لأبوة النبي ﷺ كتاباً وسُنّة وإجماعاً.

جاء في مطالب السؤول في مناقب آل الرسول لمحمد بن طلحة قال: كان الشِعبي يميل إلى آل النبي ﷺ، ولا يذكرهم إلا وهو يقول: هم أبناء رسول الله ﷺ وذريته.

فنُقِل ذلك عنه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، فلما تكرر ذلك منه، غضب على الشِعبي ونقم عليه.

فاستدعاه الحجاج يوماً، وقد اجتمع لديه أعيان المِصرَين (الكوفة والبصرة) وعلماؤها، وقراؤها، فلما دخل الشِعبي لم يهش له، ولم يُحسن استقباله فلما جلس قال يا شِعبي: ما أمر بلغني عنك فيشهد عليك بجهلك؟

قال: ما هو يا أمير؟

قال الحجاج: ألم تعلم أن أبناء الرجل إنما يُنسبون إليه؟ والأنساب لا تكون إلا بالآباء، فما بالك تقول عن أبناء عليّ أنهم أبناء رسول الله ﷺ وذريته، وهل لهم اتصال برسول الله ﷺ إلا بأمهم فاطمة، والنسب لا يكون بالبنات، وإنما يكون بالأبناء.

فأطرق الشِعبي ساعة حتى بالغ الحجاج في الإنكار عليه، ووقع إنكاره في مسامعه والشِعبي ساكت...

فقال: يا أمير، ما أراك تكلمنا إلا بكلام من يجهل كلام الله وسُنّة نبيّه ﷺ أو يُعرِض عنهما.

فازداد الحجاج غضباً وقال: ألمثلي تقول هذا، يا ويلك؟!

قال: نعم، هؤلاء هم قراء المِصْرَين، حملة الكتاب العزيز، أليس قد قال الله تعالى: (يا بني آدم)، (يا بني إسرائيل)، وعن ابراهيم (ومن ذريته عيسى) وهل كان اتصال عيسى بالثلاثة إلا بأمه، وقد صح النقل عن رسول الله ﷺ: «هذا بني سيد شباب أهل الجنة».

فخجل الحجاج، وعاد يتلطف للشعبي.

وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله، ﷺ خيّم خيمة، وهو متكىء على قوس عربية، وفي الخيمة: عليّ وفاطمة، والحسن والحسين فقال:

«معشر المسلمين، أنا سِلْم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي من والاهم. لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب الولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجدّ رديء الولادة».

ولا تنس أن الله تعالى شرفهم بالطهارة فقال: «إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» فاستعارت الآية للمعاصي الرجس، وللطاعات الطهارة، فهم موفقون للطاعات، مُنتهون عن المعاصي، وكيف لا وقد سبقت لهم من الله الحُسنى وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها، وكان الله بكل شيء علياً.

ولا يخفاك أن الله جعل لهم لسان صدق في الآخرين فهم مذكورون على ألسنتنا، وعلى مر الزمان في كل تشهُّد نتلوه في صلاة الفرض أو في النقل ونقول فيه: اللهم صلِ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد... إلخ.

وروى البخاري عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، قال: «ارقبوا مُحمداً ﷺ في أهل بيته».

وعنه ﷺ قال: «والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي» رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم عن المطلب بن ربيعة رضي الله عنه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم والطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية الكريمة «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القُربى» قالوا يا رسول الله:

من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟

قال ﷺ «عليّ وفاطمة وولداهما».

مرض النبي وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

وبعد العودة إلى المدينة بعامين أو قليل، مرض النبي ﷺ في أُخريات صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة.

فأقامت السيدة الزهراء إلى جانب أبيها براً وحناناً، كانت بداية مرضه ﷺ في بيت أم المؤمنين ميمونة، أحس وجعاً في رأسه، ولما اشتد عليه الوجع استأذن نساءه أن يمرّض في بيت السيدة عائشة حتى لايتحمل مشقة الانتقال إلى كل زوجة في دورها وهو مريض، فرضيوا جميعاً، رضوان الله عنهم، أن يُمرّض رسول الله حيث يُحب.

وقد رأته الزهراء، وهو يأخذ الماء بيده ويضعه على رأسه (من شدة الحُمى) ويقول: «واكرباه» فخنقت العبرات أم أبيها وقالت وهي محزونة: واكرب أبتاه.

فرد عليها في عطفه المعتاد، وحنانه الأبوي الخالص:

«ليس على أبيك كرب بعد اليوم».

ثم قبّلها وأجلسها إلى يمينه، وأسرّ إليها أنه قد حان أجله، فبكت، ثم أسرَّ إليها أنها ستكون أول أهله لحوقاً به، وأضاف عليه السلام: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة!».

فسرّها ما سمعت، وضحكت بعد بكاء.

فلما مضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى قالت: «وابتاه، أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».

قال الإمام ابن كثير: لا يُعد ما قالته نياحة من المنهي عنها، بل هو من باب ذكر فضائله الحقة عليه الصلاة والسلام.

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يعزي السيدة الزهراء:

أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعي ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

فجمعت السيدة الزهراء كيانها المتصدع لهول ذلك المصاب الكبير، وسعت إلى قبر الحبيب ﷺ، فقبضت قبضة من تراب القبر الشريف، وأدنتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء، ثم راحت تشمها وتقول في لوعة وحزن عميق:

مـاذا عـليّ مـن شـم تُـربـة أحمـد ألا يـشـمّ مـدى الـزمـان غـوالـيـا
صُـبّـت عـليّ مـصـائـب لـو أنها صُـبّت عـلى الأيـام عُـدْن لـيـالـيـا

واستعبرت باكية، فبكى الناس لبكائها، ثم عادت إلى دارها، فاستأذن عليها أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وراح يسألها الصبر الجميل.

فقالت: يا أنس! أطابت أنفسكم أن دفنتم رسول الله ﷺ في التراب ورجعتم؟[1]

وفي رواية: يا أنس: أطابت أنفسكم أن تحثو[2] على رسول الله ﷺ وسلم التراب؟

فشهق أنس وذرفت عيناه الدموع وترك الكلام في الصبر والعزاء. قال حماد: فكان ثابت إذا حدّث بهذا الحديث بكى حتى تختلف أضلاعه.

وأخرج ابن سعد عن أبي جعفر رضي الله عنه قال: ما رأيت فاطمة رضي الله عنها ضاحكة بعد رسول الله ﷺ.

موت الزهراء رضي الله عنها

وما أسرع ما تحقق قوله ﷺ، فقد بشرها بأنها أول أهل بيته لحوقاً به، ولا خير في عيشها من بعده وقد مكثت بعد أبيها ستة أشهر وهي تذوب.

وما أصبحت يوم الاثنين الثاني من رمضان سنة إحدى عشرة، إلا وقد عانقت أهلها، وملأت عينيها منهم، ثم دعت إليها أم رافع مولاة أبيها ﷺ فقالت لها بصوت خفيض: يا أمة اسكبي لي غُسْلا.

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم لبست ثياباً لها جدداً كانت قد نبذتها حداداً، ثم قالت: قد اغتسلت فلا يكشف لي أحد كفناً.

وقيل: غسّلها زوجها أو أسماء بنت عميس كما جاء في بعض الروايات. ونتابع الرواية الأولى:

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) تحثوا: تصبوا.

ثم قـالت الـزهــراء لأم رافـع: اجعــلي فـراشي في وسط البيت، فلما فعلت، اضطجعت عليه السيدة الزهراء، واستقبلت القبلة، وتهيأت للقاء ربها، لتلحق بـأبيها ﷺ في دار النعيم، وتبسمت ولم تُر مبتسمة بعـد وفاة أبيهـا إلا ساعتهـا، ثم أغمضت عينيها وأسلمت روحها لبارئها، وصلّى عليها عليّ ودفنها ليلاً بوصية منها في البقيع، في محـراب فيه ولـدها الحسن تحت محـرابهـا، بجـوار أمهـات المؤمنـين أزواج النبي عليـه الصلاة والسلام.

وهي أول من غُطي نعشها في الإسلام؛روى بن سعد عن أم جعفـر أن فاطمـة قـالت لأسماء بنت عُميس: إني استقبـح ما يُصنـع بالنسـاء، يُطرح عـلى المرأة الثـوب فيصفها.

فقالت: ألا أُريك شيئاً رأيته بالحبشة.

فدعت بجريدة رطبة فحسيتها، ثم طرحت عليها ثوباً.

فقالت فاطمة: ما أحسن هذا، إذا أنا مت فغسّليني أنت وعلي ولا يدخلنّ أحد علينا، ثم اصنعي بي هكذا فلما توفيت صُنع بها ما أمرت به.

عاد الإمام عليّ إلى صغاره محزوناً بعد أن ودع أعز الأحباء وسيدة نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنة، فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وقد أوحشت بموتها الـدار التي كانت نورها وجمالها، وقد أحزن المسلمين أن يشيعوا إلى القبر رابع بنات الـرسول ﷺ ولما تمض على وفاته ﷺ ستة أشهر وإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقال إمامنا عليّ رضي الله عنه يعزي نفسه:

وإن افـتقـادي فـاطـمـاً بـعـد أحمـد   دلـيـل عـلى ألا يـدوم خـلـيـل

والتفت إلى قـبر الحبيب محمد ﷺ، وقـد خنقتـه العـبرات، فقـال وهـو يبكي: «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك، قَـلَّ يا رسـول الله عن صفيتك صـبري، ورقَّ عنهـا تجلدي، إلا أن لي في االتأســي بعظيم فرُقتك، وفادح مصيبتك موضع تعز».

ويقـول الأستاذ العقـاد تعقيباً عـلى وفاتهـا رضي الله عنها: «في كـل دين صـورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكـر وأنثى».

«فإذا تقدست في المسيحية مريم العذراء، ففي الإسلام، لا جرم، أن تتقدس صورة فاطمة البتول».

فضائل الزهراء رضي الله عنها

ونعود إلى السيدة الزهراء فنقول: إن الصحاح روت عن ابن جريج قال، قال لي غير واحد: كانت فاطمة صُغرى بنات النبي ﷺ وأحبهن إليه.

كذلك سمعوه، ﷺ يقول لابنته فاطمة: «إن الله ليرض لرضاك، ويغضب لغضبك».

وأخرج الحاكم والذهبي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولَدها» وصح أن النبي ﷺ جلل فاطمة وزوجها وابنيها بكساء، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم فاذهب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً»(١). وقد جمع الأستاذ العقاد فضائل السيدة الزهراء، في كتابه القيم فاطمة الزهراء فقال رحمه الله:

«. . . في خلائق السيدة فاطمة الزهراء مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم.

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفطورة على يقين التدين، وكانت ذات إرادة لا تُهمل في حساب شأن من شؤونها. وكانت فطرة التديّن وراثة من أبوين.

. . . ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين، فإذا ظهر منها هذا الجد، وهذا اليقين، وهذه العزة، وهذه الإرادة، وهي في تلك السن الباكرة، فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسّر المفسِّرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين».

(١) رواه مسلم والحاكم وأحمد والترمذي والطبري في تفسيره وكذا ابن كثير.

وقد روت عن أبيها ﷺ الحديث، وروى عنها ابنها الحسين، وأمهات المؤمنين: عائشة وأم سلمة، وأنس بن مالك، وغيرهم.

تكريم الله عز وجل للسيدة فاطمة الزهراء وزوجها الإمام علي وبنيها السبطين الحسن والحسين

أما في القرآن الكريم، فقد جعل الله تكريم السيدة الزهراء وزوجها وبنيها في آيات تُتلى في كتابه الكريم ويتعبد بها المؤمنون في كل زمان ومكان.

وكان ذلك في ثلاث مواضع من سور الكتاب العزيز، أما الأول فهو في سورة الإنسان، قوله تعالى: «ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً. إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً. وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لا يروْن فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانية عليهم ظلالها وذُللت قطوفها تذليلاً. ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً. قواريراً من فضة قدروها تقديراً. ويُسقون كأساً كان مزاجها زنجبيلا. عيناً فيها تُسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مُخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيت ثمَّ رأيت نعيماً ومُلكاً كبيراً. عاليهم ثيابُ سندسٍ خضر واستبرق وحُلوّا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً.

نزل بها الأمين جبريل على النبي محمد ﷺ مُبشراً وقال: «خذها يا مُحمد، هنيئاً لك في أهل بيتك».

والموضع الثاني في آي الذكر الحكيم في سورة الأحزاب قال الله تعالى: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

والموضع الثالث في سورة الشورى قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القُربى ومن يقترف حسنةً نَزِدْ له فيها حُسناً إن الله غفور شكور».

وأما في السُّنة النبوية الشريفة فقد روى الحاكم والذهبي عن ابن عباس رضي الله

عنها قال، قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم، وآسية».

وصحح الترمذي هذا الحديث: «حسبك من نساء العالمين: مريم، وخديجة، وآسية بنت مزاحم، وفاطمة بنت محمد ﷺ».

وروى الحاكم عن حذيفة قال، قال النبي ﷺ: «نزل ملك فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة».

وقد تقدم أنها سيدة نساء العالمين، وأنها سيدة نساء هذه الأمة.

سلام الله على أفضل نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنة، البضعة المحمدية السيدة فاطمة الزهراء، والسلام من الله على بنيها السبطين الكريمين الطيبين الطاهرين؛ سيدا شباب أهل الجنة؛ الحسن والحسين، ثم السلام من الله على الإمام الرضيِّ المرضيّ زوجها علي، كرّم الله وجهه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع

١ ـ السيرة النبوية الشريفة لابن هشام .
٢ ـ سر الزمان لسبط الجوزي .
٣ ـ السمط الثمين للإمام محي الدين الطبري .
٣ ـ سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي .
٤ ـ نساء النبي للدكتورة بنت الشاطىء .
٥ ـ أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى للأستاذ حسن كامل الملكاوي .
٦ ـ فاطمة الزهراء للعقاد .
٧ ـ السيدة خديجة للمرحوم طه عبد الباقي سرور .
٨ ـ السيدة مريم العذراء للأستاذ أحمد حسن الباقوري .
٩ ـ قصص الأنبياء لابن كثير .

المحتويات